عادات العرب القولية
في ضوء القرآن الكريم

أ. د. عبد الفتاح بن محمد أحمد خضر(*)

ملخص البحث

يمثل البحث نقطة انطلاق نحو فَهْمٍ أوسعَ لمعاني القرآن الكريم من خلال وقوف المشتغل بالدراسات القرآنية على واقع العرب الثقافي وقت نزول القرآن الكريم، وهو ما يمكن الاصطلاح عليه بملابسات النزول، وهي أوسع من أسباب النزول؛ لأنها أسباب غير مباشرة تكمن في سنن العرب وعاداتهم.

ويؤكد البحث أن أيَّ خطاب لا يمكن أن نفهمه ما لم نستحضر سياقه اللغوي وسياقه غير اللغوي، ومن ثم فليس كلُّ أَخْذٍ بظاهر النص يفضي إلى مراد الله تعالى، إذ إن عملية بيان المعنى وعملية استنباطه عملية معقدة، وليس البناء اللغوي الظاهري إلا مدخلاً لهذا، ومن هنا كان لزاماً على من أراد التعرُّض للتفسير أن يكون فاقهاً لملابسات النص وجوِّه الذي قيل فيه.

ويفصح البحث عن أهميته للمفسِّر ليقول صواباً، وللمترجم لمادة التفسير ليعيش روح النص، لا قالبَه ومفرداتِه المتباعدةَ فحسب، حيث إنه إنْ تغافل عن روح النص، وعمد إلى قوالب الألفاظ ضَلَّ وأضلَّ؛ لأنه يجعل ما ليس مراداً لله مراداً له بترجمته للقرآن ترجمة حرفية، وهذا ما لا يليق؛ لأنه قول على الله بغير علم، وإذهابٌ لإعجاز القرآن، وترجمة لكلمات القرآن لا لمعانيه، وهو ممنوع أصلاً.

ولما كانت عادات العرب القولية وسننها اللغوية المبثوثة في تراث العربية والتفسير أكثر من أن يحتويها بحث موجز، اكتفيت هنا بإيراد ما يزيد على ثمانين أنموذجاً - في ضوء آيات العقيدة والعبادات والمعاملات مما يفتح الأبواب أمام الباحثين في هذا اللون الإعجازي للقرآن الكريم.

(*) أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم بجامعة الأزهر، عضو الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنه لَمِنَ النِّعم العظيمة، والآلاء السابغة الجليلة، الحياة في رحاب القرآن الكريم، حيث فَضْلُ الله ورحمته، ورضاه ومنته، نسأل الله العلي العظيم أن يديم علينا هذا الفضل المبين.

موضوع هذا البحث: «عادات العرب القولية في ضوء القرآن الكريم» موضوع له أهميته وشأنه في الدراسات القرآنية المتعلقة بلغة العرب وأهلها الأوائل، حيث إفادة المفسر والمترجم لتفسير القرآن الكريم، وعامة المشتغلين بالدراسات القرآنية.

فإفادة المفسر تكمن في تحرِّيه الدِّقَّةَ بتجلية المعاني التي تنتظمها الآية الكريمة، مع مراعاة اللفظ ومعناه من خلال الوقوف على حال أصحاب اللسان العربي الأصيل الذي نزل القرآن الكريم به.

وأمَّا إفادة المترجم فتكمن في وقوفه على حال مَنْ نزل القرآن بلسانهم، فلا ينزلق إلى ترجمة حرفية تفقد اللفظ معناه، فيَضِلُّ، ويتعدَّى ضلالُه إلى غيره ويأثم، ويوقع غيره في حرج، إذ فيها إخراج القرآن العظيم عن ثوبه الإعجازيِّ بتطبيق قواعد ترجمة كلام الناس على ترجمة تفسير كلام رب الناس ملك الناس إله الناس.

واهتم الإمام السيوطي - رحمه الله تعالى - في النوع الأربعين من أنواع علوم القرآن الكريم من كتاب «الإتقان» بضرورة معرفة المفسِّر لمعاني أدواته التي يَحْتاج إليها، والتي قصد بها: «الحروف» وما شاكلها من الأسماء والأفعال والظروف، إذ ابتدأ بالهمزة، وانتهى بالياء[1]، وفي النوع الثاني والأربعين الذي عنوانه: «قواعد مهمة

(١) الإتقان: ٣/ ١٠٠٤ وما بعدها، ٤/ ١١٥٣ - ١٢١٨.

يحتاج المفسر إلى معرفتها» ذَكَرَ السيوطي قاعدة في الضمائر، وقاعدة في التذكير والتأنيث، والتعريف والتنكير، وفي الإفراد والجمع، ومقابلة الجمع بالجمع، وقاعدة في ألفاظ يُظَنُّ بها الترادف وليست منه، وقاعدة في السؤال والجواب، وقاعدة في الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل، وقاعدة في المصدر، وقاعدة في العطف، فذكر شيئاً يسيراً ممَّا نحن بصدده[1].

ومما ذكره الحافظ في النوع السادس والثلاثين (في معرفة غريبه) - أي: القرآن - مسائلُ نافع بن الأزرق التي طرحها على حَبْرِ الأمة ابن عباس - رضي الله عنهما - وهي أَوْعَبُ ما ورد في نطاق تبيين الحرف الغريب من القرآن الكريم بالشعر العربي، فمن طريق عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: (إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب)، وقد ساق الحافظ السيوطي أكثر هذه المسائل[2]، وكون ما أجاب به ابن عباس يمثل جانباً من عادات العرب القولية أمر مظنون لا أستطيع القطع به، بل أرجى ما يستفاد منها أنها تفسير وبيان للغريب - فحسب - لأدلة منها:

- أن مسائل ابن الأزرق جاءت من قبيل بيان الغريب كـ (الأبّ، والكلالة، وفاطر...)، وقد توقف في تفسير هذه الألفاظ أساطين الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين.
- كما أن قول ابن الأزرق الخارجي في رَدِّه على كل جواب لابن عباس (وهل تعرف العرب ذلك؟!)، وإجابة ابن عباس عليه بقوله: (نعم، أما سمعت قول...)، ويسوق بيتاً من الشعر، ينبئ عن نظر واضح في مدى معرفة آحاد العرب لِما جاء به حَبْرُ الأمة،

(١) الإتقان: ٤/ ١٢٦٦ وما بعدها.

(٢) الإتقان: ٣/ ٨٤٧ وما بعدها. ورجال هذا الأثر ثقات. انظر: الأنساب ١/ ٤٥٧ قاله محقق الإتقان.

فضلاً عن أن يكون من عاداتهم القولية ودَيْدَنِهِم اللغوي. ومن هنا لم نذكر شيئاً من هذه المسائل لورودها لهدف يغاير خَطَّ بحثِنا، ولأنني قيدت كل عادة - من خلال أقوال العلماء - بالنص على كونها كذلك.

وعلى حَدِّ عِلْمي فإن أصحاب التفاسير الذين اتسموا بالاهتمام بالنظرات القولية كالطبري، والزمخشري، والفخر الرازي، وأبي حيان، والقرطبي، والآلوسي، هم الذين صرَّحوا بعادات العرب القولية، ولكن على حسب متطلبات كل آية تحتاج إلى التذكير بعادة قولية لغوية من عادات العرب، تُفَسَّر الآية في ظلالها، لا على سبيل إفراد الموضوع بمصنَّف.

وقد كانت جهودهم المبثوثة في كتب التفسير متعاضدة مع جهود علماء اللغة كسيبويه، وابن جني، وابن فارس، وغيرهم.

وقد أبان أحمدُ بنُ فارِسٍ في مقدمة كتابه (الصاحبي) أنه صَنَّفَ كتابه فِي فقه اللغةِ العربيةِ وسننِ العربِ فِي كلامها، ووضَّح أن اللغة العربية واسعة لا يحيط بها إلا نبي، وهذا كلام حَرِيٌّ أن يكون صحيحاً. ثم قال: «وما بلغَنا أنَّ أحداً ممن مضى ادَّعى حِفْظ اللغةِ كلِها»، ومن هنا تساءل: «وأين لسائر اللغات من السَّعة ما للغة العرب؟ ثم علَّق قائلاً: هذا ما لا خَفاء به على ذي نُهيَة»[1].

ومن هنا تأتي أهمية هذا الموضوع - الذي اعتمدتُ في تكوينه على الله تعالى، ثم على تحليلات المفسرين في كتبهم الثرية بفنون العربية، مع شفع ذلك باستقراء ما كتبه أهل اللغة والأدب؛ خدمة لمحل الشاهد - من خلال ندرة المؤلفات المتفردة بعادات العرب القولية في ضوء القرآن الكريم.

---

(١) الصاحبي: ٤، والعبارة أصلها للإمام الشافعي في الرسالة ٤٢، ونصها: (ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي).

وتكميلاً لما كنت بدأته من قبل، من تقديم بحث سبق في (عادات العرب في ضوء القرآن الكريم) تمحَّض في العادات العملية، وبانضمام العادات القولية للعادات العملية يتم النفع ويتكامل الموضوع ليبني ركناً ركيناً في الدراسات القرآنية المعاصرة، يعين المفسِّر، كما يعين المترجم للتفسير إلى أي لغة أخرى كما وضحت آنفاً.

وقد قسمت بحثي هذا إلى مقدمة وأربعة مباحث، وخاتمة:

أما المقدمة فبينت فيها أهمية هذا الموضوع وسبب اختياره.

وأما المباحث الأربعة فهي على النحو التالي:

المبحث الأول: العادة من حيث: تعريفها، وأقسامها، وحاجة المفسرين إلى معرفتها، والألفاظ ذات الصلة.

المبحث الثاني: عادات العرب القولية في ضوء آيات العقيدة.

المبحث الثالث: عادات العرب القولية في ضوء آيات العبادات.

المبحث الرابع: عادات العرب القولية في ضوء آيات المعاملات.

الخاتمة: جمعت فيها أهم نتائج البحث وشفعت ذلك بالتوصيات[1].

هذا... ومجمل بحثي يؤكد ضرورة معرفة المشتغلين بالدراسات القرآنية لواقع مَنْ نزل فيهم القرآن، ودراسة ظروفهم الاجتماعية والفكرية والدينية، وذلك لكون القرآن الكريم نزل موافقاً لعين ما نطق به أهل العربية العَرْباء، ومؤيِّداً منطقهم الأصيل، ومراعياً لأعرافهم القولية العتيقة، وأن من غَفَل عن هذا، ثم تَعَرَّض لبيان القرآن فقد قال على الله بغير علم.

(١) سنتي في هذا البحث أن ما نقلته بالنص وضعته بين تنصيص هكذا « » دونما سواه. كما أن ضابط التقسيم في المباحث الثلاثة الأخيرة باعتبارين: أولهما: الاستشهاد بالآية القرآنية التي أورَدْتها مثالاً يبرهن على أصالة ما قالته العرب دون أي اعتبار آخر. ثانيهما: كون العقيدة والعبادات والمعاملات أهم أوعية القول ومجالاته، وهذا عين ما يخص هذا البحث.

ولما كانت سنن العرب القولية، وعاداتها اللغوية أكثر من أن يحتويها بحث موجز - كبحثي هذا - إذ إن القرآن الكريم نزل موافقاً لسنن العرب في كلامها، وسنن العرب القولية كثيرة تحتاج إلى جمع وتبويب؛ لتكونَ موسوعةً علمية جامعة، بعد أن أضحَتْ مبثوثةً في كتب العربية بصفة عامة، ولدى مفسِّري القرآن الكريم بصفة خاصة، اكتفيت بنماذج - تمثَّلَتْ في المباحث الثلاثة الأخيرة - تفتح الأبواب أمام الباحثين في هذا اللون الإعجازي من ألوان التحدي اللغوي للقرآن الكريم.

والله من وراء القصد

المبحث الأول

العادة

تعريفها – أقسامها – حاجة المفسرين إلى معرفتها – الألفاظ ذات الصلة

يدور هذا المبحث حول ضابط العادة من خلال تعريفها في اللغة والاصطلاح، وفي علم الاجتماع، مع بيان العلاقة بين هذه التعريفات، مروراً بتلمُّسي لتعريفٍ لها عند علماء التفسير من خلال استقراء ما تيسر من كتبهم، كما يدور هذا المبحث حول أقسام العادة، وضرورة معرفة المفسِّر لها، كما يبين الألفاظ ذات الصلة.

ولنبدأ في المأمول بحول الله تعالى، فنقول:

– تعريف العادة:

العادة عند اللغويين هي: معاودة الأمر حتى يصيرَ سجيةً لصاحبه ودَيْدَناً وطبعاً[1].

أما العادة اصطلاحاً: فقد عَرَّفها الجرجاني تعريفاً ينخرم بكونه غير جامع، فقال: «العادة ما استمر الناس عليه على حكم المعقول – أي: ما يتفق مع المصلحة – وعادوا إليه مرَّة بعد أخرى»[2]، وهو بهذا غير جامع، إذ يقصر العادة على الحسن منها فحسب، في حين أنَّ من العادة ما هو حَسَنٌ، ومنها ما هو قبيح.

لذا أستطيع القول بأن العادة هي: مجموع ما اعتاده أهل مجتمع ما من أقوال أو أفعال حسنة كانت أو سيئة.

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ٤/ ١٨٢، والمفردات: ٢/ ٢١٨، ولسان العرب: ١/ ٣١٦، ٣٦٨، والمصباح المنير: ٣٥٥ (عود).

(٢) التعريفات: ١٨٨.

العادة في علم الاجتماع: تنحصر العادة في عرف علم الاجتماع في: «الإلف والطبيعة»(١).

- العلاقة بين التعريفات:

من خلال التدقيق في مفهوم العادة لغة واصطلاحاً، ولدى علماء الاجتماع نجد التوافق بين التعريفات كلها، إذ معاودة الأمر حتى يصيرَ سَجِيَّةً لصاحبه وديدناً وطبعاً، هو بعينه ما اعتاده أهل مجتمع من المجتمعات من أقوال أو أفعال حسنة كانت أو سيئة، هو الإلف والطبيعة.

- العادة القولية وورودها في كتب التفسير:

لم أقف على تعريف للعادة القولية من خلال علماء التفسير، ولكنني أستطيع تعريفها في ضوء معطيات هذا البحث، ومن خلال استقراء ما استطَعْتُ استقراءَه من كتب التفسير، فأقول:

العادة القولية هي: سنن العرب السائدة في كلامهم وقتَ نزولِ القرآن الكريم.

قلت: هذا لأن القرآن مَعْنِيٌّ بمَنْ نزل فيهم، ولابَسَهم، ونطق بلغتهم، وخاطبهم، وأجاب عن أسئلتهم، وناقشهم، وتحدَّاهم وأَلْزمهم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۞ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

- أقسام العادة القولية:

تنقسم العادة القولية إلى أقسام متعددة بتعدد أبواب الكلام العربي وسننه، فمنها ما يتعلَّق بالمثنى، ومنها ما يتعلَّق بالجمع، ومنها ما يتعلَّق بالأفعال، ومنها

(١) مقدمة ابن خلدون: ٣٧.

ما يتعلَّق بالأسماء، ومنها ما يتعلَّق بالأوصاف، ومنها ما يتعلَّق بالتعريف، ومنها ما يتعلَّق بالتنكير، ومنها ما يتعلَّق بالإشارة، ومنها ما يتعلَّق بالمدح، ومنها ما يتعلَّق بالذم، ومنها ما يتعلَّق بالمنادى، ومنها ما يتعلَّق بالتعجب، ومنها ما يتعلَّق بالمبالغة، ومنها ما يتعلَّق بالتفضيل... وهلمَّ جَرّاً.

- ضرورة معرفة عادات العرب القولية للمشتغل بالدراسات القرآنية:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «أَكْثَرُ مَا يقع فِيهِ الْخَطَأُ مِنْ جِهَتَيْنِ:

إحْدَاهُمَا: «قَوْمٌ اعْتَقَدُوا مَعَانِيَ ثُمَّ أَرَادُوا حَمْلَ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ عَلَيْهَا.

والثَّانِيَةُ: قَوْمٌ فَسَّرُوا الْقُرْآنَ بِمُجَرَّدِ مَا يُسَوِّغُ أَنْ يُرِيدَهُ بِكَلامِهِ مَنْ كَانَ مِنْ النَّاطِقِينَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إلَى الْمُتَكَلِّمِ بِالْقُرْآنِ وَالْمُنَزَّلِ عَلَيْهِ وَالْمُخَاطَبِ بِهِ.

فـ «الأَوَّلُونَ» رَاعَوْا الْمَعْنَى الَّذِي رَأَوْهُ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إلَى مَا تَسْتَحِقُّهُ أَلْفَاظُ الْقُرْآنِ مِنْ الدَّلالَةِ وَالْبَيَانِ.

و«الْآخَرُونَ» رَاعَوْا مُجَرَّدَ اللَّفْظِ وَمَا يَجُوزُ عِنْدَهُمْ أَنْ يُرِيدَ بِهِ الْعَرَبِيُّ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إلَى مَا يَصْلُحُ لِلْمُتَكَلِّمِ بِهِ وَلِسِيَاقِ الْكَلامِ. ثُمَّ هَؤُلَاءِ كَثِيراً مَا يَغْلَطُونَ فِي احْتِمَالِ اللَّفْظِ لِذَلِكَ الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ كَمَا يَغْلَطُ فِي ذَلِكَ الَّذِينَ قَبْلَهُمْ، كَمَا أَنَّ الْأَوَّلِينَ كَثِيراً مَا يَغْلَطُونَ فِي صِحَّةِ الْمَعْنَى الَّذِي فَسَّرُوا بِهِ الْقُرْآنَ كَمَا يَغْلَطُ فِي ذَلِكَ الآخرون، وَإِنْ كَانَ نَظَرُ الْأَوَّلِينَ إلَى الْمَعْنَى أَسْبَقَ، وَنَظَرُ الآخرين إلَى اللَّفْظِ أَسْبَقَ.

وَالْأَوَّلُونَ «صِنْفَانِ»: تَارَةً يَسْلُبُونَ لَفْظَ الْقُرْآنِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ وَأُرِيدَ بِهِ. وَتَارَةً يَحْمِلُونَهُ عَلَى مَا لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ وَلَمْ يُرَدْ بِهِ، وَفِي كَلا الأَمْرَيْنِ قَدْ يَكُونُ مَا قَصَدُوا نَفْيَهُ أَوْ إثْبَاتَهُ مِنْ الْمَعْنَى بَاطِلاً فَيَكُونُ خَطَؤُهُمْ فِي الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ، وَقَدْ يَكُونُ حَقّاً فَيَكُونُ خَطَؤُهُمْ فِي الدَّلِيلِ لا فِي الْمَدْلُولِ»[1].

(١) مجموع الفتاوى: ٣/ ١٩٦.

وفي ظلال هذا التقعيد من شيخ الإسلام نقول: إنه يجب على المشتغلين بالدراسات القرآنية أن يحرروا دلالة الخطاب، بمعنى استخراج المعنى من الخطاب **باستحضار عاملين أساسين هما:**

السياق اللغوي أي: السياق الداخلي المتمثل فيما قبل الآية – موضوع التفسير – وما بعدها باعتبار القرآن الكريم نسقاً متكاملاً لا يمكن فهم إحدى جزئياته إلا في إطاره الشمولي، ومن ثم نفهم فهماً جيداً لماذا اشترط أهل السنة في أصولهم التفسيرية تفسير القرآن بالقرآن، ودلالة السياق، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والعلاقات الدلالية القائمة بين ألفاظ القرآن الكريم: العام والخاص، المطلق والمقيد، علاقة الجزء بالكل، علاقة التضمن وغيرها من العلاقات الدلالية التي في غيابها لا يمكننا فَهْمُ الخطاب القرآني.

كما أن عليه: فَهْمَ السياق غير اللغوي، أي: السياق الخارجي وهو بالنسبة للخطاب القرآني ينقسم إلى قسمين:

أسباب النزول: وهي الظروف والملابسات المواكبة لنزول سورة أو آية، أي: إنها سبب غير مباشر. ومعلوم أنه ليس كل القرآن الكريم له سبب مباشر، كما أنه لا يمكن أن نتصور أن بعضاً من القرآن الكريم ليس له سياقٌ غيرُ لغوي، فالقرآن الكريم كان ينزل في بيئة عربية، ويخاطب أقواماً من العرب العَرْبَاء، ومن ثم فإنه حتماً ولزاماً له سياق غير لغوي يتمثل في الواقع الثقافي المواكب لنزول القرآن الكريم: الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والدينية التي واكَبَتْ نزول القرآن الكريم، وهي ما يمكن الاصطلاح عليه بملابسات النزول، وهي أوسعُ من أسباب النزول؛ لأنها أسباب غير مباشرة تكمن في سنن العرب وعاداتهم.

لذا فإنَّ أيَّ خطاب لا يمكن أن نفهمه ما لم نستحضر سياقه اللغوي وسياقه غير اللغوي، ومن ثم فليس كلُّ أَخْذٍ بظاهر النص يُعَدُّ مُفْضياً إلى مراد الله تعالى، إذ إن عملية بيان المعنى وعملية استنباطه عملية معقدة، ولا يشكل البناء اللغوي الظاهري إلا مدخلاً لهذه العملية، ومن ثم وجب الاحتراز من ذلك بوَصْفِهِ مدخلاً لكثير من الفرق الضالة قديماً وحديثاً لتمرير مخططاتهم، إذ **الأخذ بالظاهر له شروط منها:**

١) العام ينظر إليه في إطار الخاص.

٢) المطلق ينظر إليه في إطار المقيد.

٣) المتشابه ينظر إليه في إطار المحكم.

٤) المنسوخ ينظر إليه في إطار الناسخ.

٥) دلالة السياق اللغوي: أي ما قبل النص وما بعده.

٦) العرف اللغوي، أي: مراعاة سنن العرب في كلامهم.

٧) العرف القرآني: طرائق القرآن التعبيرية وأسلوبه في البيان والبلاغ[١].

ومن هنا نستطيع الجزم بأنه لا نصيب في فهم القرآن لمَنْ لم يتدَّبر ملابسات النص ووجوهه التي قيل فيها، ولعل هذا هو سبب اشتراط العلماء[٢] على من أراد التعرُّض لتفسير كلام الله تعالى أن يكون فاقهاً بملابسات النص وجوِّه الذي قيل فيه، وقصة نزول كل آية لها سبب، قال الواحدي: «يمتنع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها، ومن وَلَجَ هذا المَوْلِجَ بجهل فموعده النار»[٣].

---

(١) انظر شبكة التفسير والدراسات القرآنية، ومقال د. الضاوي.

(٢) كالواحدي، وابن تيمية، وابن دقيق العيد، ومن وافقهم كالسيوطي وغيره من العلماء.

(٣) أسباب النزول: ٤، وانظر: لباب النقول: ١٣، والإتقان: ١/ ٩٢.

من الأمثلة التطبيقية المبرهنة على ضرورة معرفة عادات العرب القولية شرطاً من شروط المشتغل بالدراسات القرآنية تفسيراً أو ترجمة:

- فساد رأي من فسرالصباح في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٧] بمجرد الزمن المعروف في أول النهار فحسب؛ لأن في ذلك عدم مراعاة سنن العرب في تعبيراتهم ومراداتهم منها.
- وفساد رأي مَنْ حَمَلَ بكاء السماء في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٩] على معناه الظاهر دون مراعاة سنة العرب في استعمال هذا التركيب.
- وفساد رأي مَنْ حمل معنى خَلْق الإنسان مِنْ عَجَل في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧] على معناه الظاهر المتبادر بداهة منه، دون الرجوع لسُنَّة العرب في هذه العبارة، وما الذي يعنونه عند إطلاقها؟
- ومرجوحية رأي من فسَّر الفحشاء في قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨] بمعناها المتبادر الشائع في غير هذا الموضع في القرآن الكريم كله.
- كما أن من لم يقف على عادات العرب القولية من المفسرين أو المترجمين للتفسير، يحار في كيفية نسبة صدور الفعل مما لا يمكن صدوره منه في مثل قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ٣]، ولن يهتدي إلا بالعود إلى أصحاب اللسان العربي الأول الذي نزل القرآن على سَنَنِهِ.

كما تُظهر أهميةُ هذا الموضوع سُنَنَ العربِ في التكرير والإعادة، وإطلاقهم الواحد وإرادتهم الجمع... وهلمَّ جرّاً.

قلت: كل ذلك وغيره يُجَسِّده جوهر هذا البحث، ويفصح عن أهميته للمفسر ليقول صواباً، وللمترجم لمادة التفسير ليعيش روحَ النصِّ لا قالبَه ومفرداتِه المتباعدة فحسب، إذ إن مَنْ تغافل عن روح النص، وعَمَدَ إلى قوالب الألفاظ، ضلَّ وأضلَّ؛ لأنه يجعل ما ليس مراداً لله مراداً له.

ومما يجدر الإشارة إليه أن واحداً ممن ترجم معاني القرآن إلى الفرنسية قال في قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] ما نصه: (هن بنطلونات لكم وأنتم بنطلونات لهن)؛ لحَمْله اللفظ على غير المراد منه لترجمته ترجمة حرفية، وهذا ما لا يليق؛ لأنه قول على الله بغير علم، وإذهاب لإعجاز القرآن وجهل فاضح به، وبالله رب العالمين، وترجمة للقرآن لا لمعانيه وهو ممنوع أصلاً.

- الألفاظ ذات الصلة:

من الألفاظ ذات الصلة بالعادة: العُرْفُ، والسُّنَّةُ، والطبع، والتقليد، والكل بمعنى العادة على صحيح القول[1].

(١) الموسوعة الفقهية: ٣٠/ ٥٤. ويقول الجرجاني: «العرف ما استقرت النفوس عليه بشهادة العقول وتلقته الطبائع بالقبول وهو حجة أيضاً، لكنه أسرع إلى الفهم، والعادة هي ما استمر الناس عليه على حكم العقول وعادوا إليه مرة أخرى». التعريفات - الجرجاني: ١/ ١٩٣. أما التقليد فهو إِلْفُ ما عليه الناس ومجاراتهم في عاداتهم. أما السُّنَّةُ فالطَّرِيقَةُ، وَالسُّنَّةُ السِّيرَةُ حَمِيدَةً كَانَتْ أَوْ ذَمِيمَةً، وَالْجَمْعُ سُنَنٌ مِثْلُ: غُرْفَةٍ وَغُرَفٍ. المصباح المنير: سنن، ص٢٩١.

المبحث الثاني[*]

عادات العرب القولية في ضوء آيات العقيدة

في هذا المبحث نورد نماذج لبعض عادات العرب القولية في ضوء آيات عنيت بالمعاملات من ذلك:

- تسمية العقوبة باسم الذنب:

من عادات العرب القولية: تسميتهم العقوبة باسم الذنب، وفي ضوء هذه العادة العربية جاء قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

أي: ينتقم منهم ويعاقبهم ويسخر بهم ويجازيهم على استهزائهم، فسَمَّى العقوبة باسم الذنب، هذا قول جمهور العلماء، والعرب تستعمل ذلك كثيراً في كلامهم، من ذلك قول عمرو بن كلثوم[٢]:

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا فنَجْهَلَ فوق جَهْلِ الجاهلينا

فسمَّى انتصاره جهلاً، والجهل لا يَفْتخر به ذو عقل، وإنما قاله ليشاكل الكلام، فيكون أخفَّ على اللسان من المخالفة بينهما، وكانت العرب إذا وضعوا لفظاً بإزاء لفظ جواباً له وجزاء ذكروه بمثل لفظه وإن كان مخالفاً له في معناه، وعلى ذلك جاء القرآن والسنة النبوية المطهرة، قال الله عز وجل: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]، والجزاء لا يكون سيئة،

(*) تصنيف الآيات وَفْق ما ذهب إليه الباحث في المباحث الثلاثة يحمل وجهة نظره، وثمة وجهات أخرى تصنف الآية تصنيفاً آخر. وعلى كل حال الإضافة تقع بأدنى ملابسة، ومناط البحث يدور حول سنن العرب في أقوالهم.

(٢) انظر: لسان العرب: ٣/ ١٧٥، المزهر في علوم اللغة: ١/ ٣٧٠، خزانة الأدب: ٦/ ٤٣٧.

والقصاص لا يكون اعتداء؛ لأنه حق وجب، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وكذلك قوله سبحانه في حق المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢]. وفي حقهم أيضاً: ﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [التوبة: ٧٩]، وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا**»[(١)]، قيل: «حتى» بمعنى الواو أي: وتملوا، وقيل: المعنى: وأنتم تَمَلُّون، وقيل: المعنى: لا يقطع عنكم ثواب أعمالكم حتى تقطعوا العمل[(٢)].

- قولهم عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض:

من عادات العرب القولية: قولهم عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض، وعلى ذلك يجب حمل معنى نفي البكاء على فرعون وقومه في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: لكفرهم، وما كانوا منظرين أي: مؤخَّرين بالغرق، وكانت العرب تقول عند مَوْتِ السَّيِّد منهم: بكت له السماء والأرض، أي: عَمَّتْ مصيبتُه الأشياءَ حتى بَكَتْه السماء والأرض والريح والبرق، وبَكَتْه الليالي الشاتيات، قال يزيد بن مفرّغ الحِمْيَري[(٣)]:

فالرِّيحُ تَبْكي شَجْوَها والبرقُ يَلْمعُ في الغَمامَه

(١) البخاري، كتاب: الصوم، باب: صوم شعبان، برقم: ١٩٧٠، ٧/ ٢٩٩، ومسلم، كتاب: صلاة المسافرين، باب: فَضِيلَةِ الْعَمَلِ الدَّائِمِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَغَيْرِهِ. برقم: ١٨٦٣، ٥/ ١٨٢.

(٢) القرطبي: ١/ ٢٠٧. تنبيه: يجب علينا أن نؤمن بما أخبر الله به في كتابه العزيز وبما نطقت به ألسنة رسله صلوات الله عليهم أجمعين، من غير تشبيه ولا تعطيل، ولا تحريف ولا تأويل، وكذلك كل ما جاء من الصفات نُمِرُّه كما جاء من غير مزيد عليه، ونقتدي في ذلك بعلماء السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، ونسكت عما سكتوا عنه، ونتأول ما تأولوا، وهم القدوة في هذا الباب، وبهم نهتدي.

(٣) ديوان يزيد بن مفرغ الحميري: ٢٠٨.

وقال جرير[1]:

فالشمسُ طالعةٌ ليست بكاسفةٍ تَبكي عليك نجومَ الليل والقمرا

وقالت ليلى الخارجيةُ تَرْثي أخاها الوليد[2]:

أيا شَجَرَ الخابُورِ مالَكَ مُورِقاً كأنَّك لمْ تَحْزَنْ على ابنِ طَرِيفِ

وذلك مبالغة في وجوب الجَزَع والبكاء عليه، والمعنى: أنهم هلكوا فلم تعظم مصيبتهم، ولم يوجد لهم فَقْدٌ[3].

- تخصيص الدابة بذوات الأربع:

من عادات العرب القولية: تخصيصُ الدابَّةِ بذوات الأربع، وقد جاء القرآن فعَمَّم هذا التخصيصَ ليشمل كل ما يَدِبُّ، فقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

أي: وما من حَيَوان يَدِبُّ على الأرض إلا على الله تعالى غذاؤه ومعاشه. قال الزجَّاج: الدابَّة اسمٌ لكل حيوان؛ لأن الدابَّةَ اسم مأخوذ من الدبيب، وهو في الأصل المشي الخفيف، إلا أنه بحسب عُرْف العرب مختص بذواتِ القوائم الأربع، وقد تُخَصُّ بالفَرس.

والمراد بهذا اللفظ في هذه الآية المعنى الأصلي اللغوي، فيدخل فيه جميع الحيوانات، وهذا متفق عليه بين المفسرين، ولا شك أن أقسام الحيوانات وأنواعها كثيرة، وهي الأجناس التي تكون في البر والبحر والجبال، والله يحصيها دون غيره، وهو تعالى

---

(١) شرح شواهد الشافية للبغدادي: ٤/ ٢٨، ٢٩. قوله: «نجوم الليل والقمرا»، فيه أقاويل كلها جيدٌ، فمنها: أن تنصب (نجوم، والقمرَ) بقوله: بكاسفةٍ، والمعنى: الشمسُ طالعةٌ ليست بكاسفةٍ نجوم الليل والقمرَ، يقول: إنما تكسفُ النجومَ والقمرَ بإفراطِ ضيائها، وهي من الحزن عليه قد ذهب ضياؤها فظهرت الكواكبُ.

(٢) تهذيب اللغة: ٧/ ٣٦٩، تاج العروس: ٦/ ٣٢٧.

(٣) القرطبي: ١٦/ ١٣٩، وفتح القدير: ٤/ ٥٧٥.

عالم بكيفية طبائعها وأعضائها وأحوالها وأغذيتها ومساكنها وما يوافقها وما يخالفها، فالإله المدبِّر للسموات والأرضين وطبائع الحيوان والنبات كيف لا يكون عالماً بأحوالها؟[1].

- التعبير عن قبح المنظر بالشيطان:

من عادات العرب القولية: تشبيههم المنظر القبيح بالشيطان، وقد نطق القرآن بذلك، فقال عز من قائل: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]. وذلك وصفاً لشجرة الزقوم التي تنبت في قعر جهنم، والتي تحمل ثمراً قبيح المنظر، مشوه الصورة، كأنه رؤوس الشياطين.

والذي يؤكد هذا الوصف: أن العقلاء إذا رأوا شيئاً شديد الاضطراب منكر الصورة قبيح الخلقة، قالوا: إنه شيطان، وإذا رأوا شيئاً حسن الصورة والسيرة، قالوا: إنه ملك. قال امرؤ القيس[2]:

أَيَقْتُلُنـــي والمَشْـرَفِـــيُّ مُضاجِعـــي ومَسْـنونـةٌ زُرْقٌ كأَنيـــابِ أَغـــوالِ؟

والعرب إذا رأت منظراً قبيحاً قالت: كأنه شيطان الحَمَاطة، فشُبِّه بأنياب الأغوال، وهي نوع من الشياطين، ولم يرها كما ارتسمت في خياله. وعلى عكس هذا تشبيههم الصورة الحسنة بالمَلَك، وذلك أنهم اعتقدوا فيه خيراً محضاً لا شر فيه، فارتسم في خيالهم بأحسن صورة، وعليه قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، وبهذا يُرَدُّ على بعض الملاحدة فقد طعن في هذا التشبيه بأنه تشبيه بما لا يعرف، وحاصله: أنه لا يشترط أن يكون معروفاً في الخارج، بل يكفي كونه مركوزاً في الذهن والخيال[3].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ١٧/ ١٤٨، وروح المعاني: ١٢/ ٢. هذه العادة من النادر الذي هَذَّبه القرآن الكريم.

(٢) ديوان امرئ القيس: ٣٣.

(٣) مفاتيح الغيب: ٢٦/ ١٢٤، روح المعاني: ٢٣/ ٩٥. والحَمَاطة: واحدة الحَمَاط، وهو: شجر شبيه بشجر التين، تألفه الحيات. وشيطان الحَمَاط: جنس من الحيات يألف سُكنى هذا الشجر. المعجم الوسيط: (حمط).

- القنطار: المال الكثير:

من عادات العرب القولية: استعمال القنطار مبالغة في المال الكثير، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

المعنى: ومن أهل الكتاب مَن إنْ تَأْمَنْه على المال الكثير يؤدِّه إليك كاملاً من غير إنقاص، ومنهم مَن إنْ تأمنه بدينار، أي: على دينار واحد لا يؤدِّه إليك، إلا إذا بذلت مجهوداً عظيماً في مطالبته، وذلك بسبب اعتقاد اليهود استحلال أموال «الأميين» أي: العرب بالباطل، ويقولون أيضاً: ليس علينا في أكل أموالهم إثم؛ لأن الله - بحسب زعمهم - أحلَّها لهم. ولا غرابة فهم يقولون بألسنتهم الكذب وهم يعلمون ذلك.

والتعبير بالقنطار لا يعني تحديد الوزن المعروف به، بل يعني المال الكثير مبالغة؛ ويقال منه: قَنْطَرَ الرجلُ إذا كان عنده قناطير، أو قنطار من المال، والقنطار مأخوذ من: قنطرت الشيء، عقدته وأحكمته، ومنه سُمِّيت القنطرة لإحكامها، وقيل: قنطرته: عَبَّيته شيئاً على شيء، ومنه سمي القنطرة. فشبه المال الكثير الذي يُعَبَّى بعضه على بعض بالقنطرة، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤](١).

(١) المحرر الوجيز: ١/ ٤٠٩، والبحر المحيط: ٣/ ١٥٨، وفقه اللغة للثعالبي: ١١، واللسان (قنطر)، ٥/ ١١٨.

- «أولى لك» بمعنى التوعد والتهديد:

من عادات العرب القولية: استعمال كلمة أولى في الزجر والوعيد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤، ٣٥]. الآيتان وردتا في سياق الحديث عن الكافر الذي لا صدَّق ولا صلى، ولكن كذَّب بالقرآن، وتولى عن الإيمان، ثم مضى إلى أهله مختالاً في مشيته، يتوعده ربه بالهلاك المؤكد الذي لن يفلت منه، فقوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ وعيدٌ، ثم كرر ذلك تأكيداً، أي: الشر أقرب إليك، والعرب تستعملها في التَّوعُّد والتَّهَدُّد. قال الزمخشري وتبعه الفخر الرازي، وأبو السعود والبيضاوي: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾: ويل لك، وأصله أَوْلاك الله ما تكرهه، أو: دَنَوْتَ من الهلكة[1].

- القصر: ما كان مشيداً:

من عادات العرب القولية: تسمية ما كان مشيداً بالجدران قصراً، وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾ [الفرقان: ١٠] الآية الكريمة خطاب للنبي ﷺ تضمنت إثبات قدرة الله الفائقة الذي إن شاء جعل لنبيِّه خيراً مما تَمَنَّاه له المشركون، فهو قادر على أن يجعلَ له في الدنيا حدائقَ كثيرةً تجري من تحتها الأنهار، ويجعل له ﷺ فيها قصوراً مشيدة.

والقصور: البيوت المبنية بالجدران، وكانت العرب تُسَمِّي ما كان من الشَّعْر والصوف والقصب بيتاً، وتسمي ما كان مَشِيداً بالجدران قصراً؛ لأنه قُصِر عن الداخلين والمستأذنين[2].

---

(١) الصحاح: ٦/ ٢٥٣٠، ومقاييس اللغة: ٦/ ١٤١، والمحرر الوجيز: ٤/ ٥٠٣، وأساس البلاغة: ٢/ ٥٢٨، والكشاف: ٤/ ٦٦٥، ومفاتيح الغيب: ٣٠/ ٢٠٦، ٣١/ ٨٠، وأنوار التنزيل: ٥/ ٤٢٤، وإرشاد العقل السليم: ٩/ ٦٩.

(٢) الجواهر الحسان في تفسير القرآن: ٣/ ١٣١. وانظر: المحرر الوجيز: ٤/ ٢٠١، معالم التنزيل: ٣/ ٣٦٢.

- وَصْفُهم وجهَ من أصيب بمكروه بالسواد:

من عادات العرب القولية: قولُهم لكل من لقي مكروهاً: قد اسودَّ وجهُه غَمّاً وحزناً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨]، الآية وصف لأهل الجاهلية الذين كانوا يَضيقون بالإناث ذَرْعاً، ومعنى ﴿وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي: متغيِّراً، وليس يريد السواد الذي هو ضد البياض، وإنما هو كنايةٌ عن غَمِّه بالبنت، واعتراضه على ربه، والعربُ تقول لكل مَنْ لقي مكروهاً: قد اسودَّ وجهُه غمّاً وحزناً[١].

- التذكية: الذبح:

من عادات العرب القولية: تفسيرهم التذكية بمعنى الذبح، ومن ذلك ما فُسِّر به قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: ٣]، الآية الكريمة وردت مبينة للمطعومات المحرمة كالحيوان الذي تفارقه الحياة بدون ذَكاة، كذا الدم السائل المُراق، كذا لحم الخنزير، كذا ما ذُكِر عليه غيرُ اسم الله عند الذَّبْحِ، كذا ما يحل أكله من البهيمة وغيرها التي حُبِس نَفَسُها حتى ماتت، والتي ضُرِبَتْ بعصا أو حجر حتى ماتت، والتي سقطت من مكان عال أو هَوَت في بئر فماتت، والتي ضَرَبَتْها أخرى بقَرْنها فماتت، والتي أكلها السبُع، كالأسد والنمر والذئب... والمستثنى من المحرمات ما تَمَّتْ تَذْكِيَتُه قبل أن يموت، أي: ما ذبح، والذَّكاة في كلام العرب: الذبح[٢].

(١) معالم التنزيل: ١٠/ ١١٦.

(٢) القرطبي: ٦/ ٥١.

- جَمْعُهم الأشياء غير المتناسبة مع بعضها في الجملة:

من عادات العرب القولية: جَمْعُهم الأشياء غير المتناسبة في الجملة، وقد نطق القرآن بهذا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۞ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]، المعنى: أن لك يا آدم في هذه الجنة نعمة تامة وعطية مستمرة: ألَّا يصيبك جوع ولا عُرْي ولا ظمأ، ولا بروز للشمس يؤذيك، وهو الضَّحاء، وجعل الله تعالى الجوع في هذه الآية مع العُرْيِ، والظمأ مع الضَّحاء، وكان عُرْفُ الكلام أن يكون الجوع مع الظمأ للتناسب، والعُرْي مع الضَّحاء لأنها لا تتضاد، إذ العري يمس بسببه البرد فيؤذي، والحَرُّ يفعل ذلك بالضاحي، وهذه الطريقة مَهْيَعُ، أي: واضحة واسعة بيِّنة، في كلام العرب أن تناسبَ في الكلام، ومنه قول امرئ القيس(١):

كَأَنِّيَ لَمْ أركبْ جواداً لِلَذَّةٍ ... ولم أَتَبَطَّنْ كاعباً ذات خَلْخالِ
ولم أَسْبَأ الزِّقَّ الرَّوِيَّ ولم أَقُلْ ... لخيليَ كُرِّي كَرَّةً بعد إجفَالِ

والترتيب يوجب نظم البيتين هكذا:

كأنِّيَ لم أَرْكَبْ جَواداً ولم أَقُلْ ... لخيليَ كُرِّي كرةً بعد إجْفال
ولم أسبأ الزِّق الرويِّ لِلَذَّةٍ ... ولم أَتَبَطَّنْ كاعِباً ذاتَ خَلْخال

لأنَّ ركوبَ الجوادِ مع ذِكْرِ كُرورِ الخيل أجودُ، وذِكْر الخمر مع ذكر الكواعب أحسن. والذي جاء به امرؤ القيس هو الصحيح؛ لأنَّ العرب تضع الشيء مع خلافه أو ضده، فيقولون: الشدَّة والرخاء، والبؤس والنعيم، ونحو ذلك. وكذلك كل ما يجري هذا المجرى.

---

(١) ديوان امرئ القيس: ٣٥، والمحرر الوجيز: ٤/ ٦٧.

- ذكرهم للمفرد النكرة مراداً به معنى الجمع المعرف باللام:

من عادات العرب القولية: ذِكْرُهم المفردَ النكرة مراداً به معنى الجمع المعرف باللام، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]. قال الآلوسي: «واختيار «شجرة» على أشجار أو شجر؛ لأن الكلام عليه أبعدُ عن اعتبارِ التوزيع بأن تكون كل شجرة من الأشجار أو الشجر قلماً، المُخِلُّ بمقتضى المقام من المبالغة بكثرة كلماتِهِ تعالى شأنه، أن هذا مما وقع فيه المفرد موقع الجمع، والنكرة موقع المعرفة، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]. وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٤٩]. وقول العرب: هذا أولُ فارس، وهذا أفضل عالم، يراد: من الآيات، ومن الرحمات، ومن الدوابِّ، وأول الفرسان، وأفضل العلماء؛ ذكر المفرد النكرة وأريد به معنى الجمع المعرف باللام، وهو مَهْيَعٌ في كلام العرب معروف، وكذلك يُقَدَّرُ هنا من الشجرات أو من الأشجار فلا تغفل[1].

- تقديمهم في الشَّرِّ اسمَ المدعو عليه:

من عادات العرب القولية: تقديمهم اسم المدعو عليه في الشر، وهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [صٓ: ٧٨] خطاباً لإبليس عليه لعنة الله. قال القرطبي: «جرت عادة العرب بتقديم اسم المدعوِّ عليه في الشَّر كقولهم: عليه لعنة الله وغضب الله، لذا قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾»[2].

(١) روح المعاني: ٢١/ ٩٧، وانظر: البحر: ٩/ ١١٠، وفتح القدير: ٤/ ٢٤٢.

(٢) القرطبي: ٥/ ٣١٠.

- عدم ذكر الحرائر بالاسم:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النساء: ١٧١].

لم يذكر الله عز وجل امرأةً وسمَّاها باسمها في كتابه إلا مريم بنت عمران، فإنه ذَكَرَ اسمَها في نحوٍ من ثلاثين موضعاً لحكمة ذكرها بعض الأشياخ، فإن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في الملأ، ولا يبتذلون أسماءهن، بل يَكْنُون عن الزوجة بالعرس والأهل والعيال ونحو ذلك، فإن ذكروا الإماء لم يكنُّوا عنهن، ولم يصونوا أسماءهن عن الذِّكْرِ والتصريح بها، فلما قالت النصارى في مريم ما قالت، وفي ابنها صرح الله باسمها، ولم يُكَنِّ عنها بالأمومة والعبودية التي هي صفة لها، وأجرى الكلام على عادة العرب في ذكر إمائها[1].

- تعبير العرب عن شدة ستر الشيء بقولهم: (أكاد أخفيه):

من عادات العرب القولية: قولهم: (أكاد أخفي الشيء) يريدون شدَّة سَتْرِه عن الآخرين، وفي ضوء ذلك جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ١٥]، الآية محمولة على ما جرت به عادة العرب في كلامهم، من أن أحدهم إذا بالَغَ في كتمان الشيء قال: كِدْت أُخْفيه؛ والمعنى: أنه لشدَّةِ إبهامِها أكادُ أخفيها، فلا أظْهِرُها البتة.

ومن هذا ما رواه أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُم اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ...، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ**»[2].

---

(١) القرطبي: ٦/ ٢٢.

(٢) البخاري، كتاب: الحدود، باب: الصَّدَقَةِ بِالْيَمِينِ برقم: ١٣٣٤، (٢/ ٢٤٢). ومسلم، كتاب: الزَّكَاةِ - باب: فَضْلِ إِخْفَاءِ الصَّدَقَةِ برقم: ١٧١٢، (٥/ ٢٢٩).

ومنه أيضاً قول الشاعر:

أَيَّـــامَ تَصْحَبُنِي هِـنْـدٌ وَأُخْـبِـرُهَـا   مَا كِـدْتُ أَكْـتُـمُـهُ عَنِّي مِـنَ الخَبَرِ

فأكاد أخفيها أي: لا أظهر عليها أحداً(١).

وفائدة إخفائها إلا قليلاً - بإظهار علاماتها قبلها - التخويف والتهويل، والاجتهاد في الطاعة، ولكن تحديد وقت قيام الساعة ذاته لا يعلمه إلا عَلَّام الغيوب، والأدلة متكاثرة على ذلك.

- **الالتفات:**

من عادات العرب القولية: التلوينُ في الخِطاب لحِكَمٍ بلاغية تدورُ حول تقوية الكلام وتأكيده، ولفت النظر إليه، وهذا ما يسمَّى بالالتفات، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا﴾ فيه التفات من الغيبة إلى التكلم ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ بصيغة التعظيم. ونظيره قوله تعالى في «الأنعام» [٩٩]: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ الآية، وقوله في «فاطر» [٢٧]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾، وقوله في «النمل» [٦٠]: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ الآية.

وهذا الالتفاتُ من الغَيْبة إلى التكلُّم بصيغة التعظيم في هذه الآيات - كلها في إنبات النبات - يدُلُّ على تعظيم شأن إنبات النبات؛ لأنه لو لم ينزل الماء، ولم يُنْبِتْ

(١) القرطبي: ١١/ ١٨٥، وانظر: النيسابوري: ٥/ ٢٧٠، ومفاتيح الغيب: ١٠/ ٣٧٠، ولباب التأويل: ٤/ ٣٦٧، والبحر: ٨/ ٦٧، واللباب: ١١/ ١٤٣، وروح المعاني: ١٢/ ١٢٢.

شيئاً لهلك الناس جوعاً وعطشاً، فهو يدلُّ على عَظَمَتِهِ جل وعلا، وشدة احتياج الخلق إليه ولزوم طاعتهم له جل وعلا(١).

يقول القرطبي في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] قال أولاً: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ ثم قال ثانياً: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ [محمد: ٢٣] فَرجَعَ من الخطاب إلى الغَيْبة على عادة العرب في ذلك(٢).

- اعتبار العرب سَعَةَ الشيء بعرضه دون طوله:

من عادات العرب القولية: اعتبارهم سَعة الشيء بذكر العرض دون الطول، وقد جاء بذلك قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١] أي: وجنة عرضها كعرض السماء والأرض لو وصل بعضها ببعض.

قال الحسن: يعني: جميعُ السموات والأَرَضين مبسوطتان، كل واحدة إلى صاحبتها.

والعَرْضُ أقل من الطول، ومن عادة العرب أنها تُعَبِّر عن سَعَةِ الشيء بعرضه دون طوله، قال عبيد بن أيوب بن ضِرار العنبري(٣):

كـأَنَّ بـلادَ الـلّـهِ، وهْـيَ عَـرِيـضَـةٌ   على الخائِـفِ المَطْرُودِ، كِفَّـةُ حابِـلِ

---

(١) أضواء البيان: ٤/ ٩٦.

(٢) القرطبي: ١٦/ ٢٤٦.

(٣) الحماسة البصرية: ١/ ٥٣٣، القرطبي: ١٧/ ٢٥٦، اللباب: ١٥/ ١٤٠، فتح القدير: ٧/ ١٥٧.
والحابل: الصائد، والكفَّة: حَبْلُه الذي يصيد به.

- إضافة العرب الضُّحى للعشي:

من عادات العرب القولية: إضافتهُم الضُّحى إلى العشية، يريدون ذات اليوم الذي يكون فيه هذه العشية، وقد جاء بذلك قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

قد يقول قائل: وهل للعشية ضحى؟ وإنما الضحى لصدر النهار، ولكن أضيف الضحى إلى العشية، وهو اليوم الذي يكون فيه على عادة العرب، يقولون: آتيك الغداة أو عشيتها، وآتيك العشية أو غداتها، فتكون العشية في معنى آخر النهار، والغداة في معنى أول النهار، أنشد الكسائي[(١)]:

نَحنُ صَبَحْنا عامراً في دارِها
جُزْءاً تعادَى طَرفَيْ نهارِها
عَشِيَّةَ الهِلالِ أو سِرارِها

أراد: عشية الهلال، أو سرار العشية، فهو أشد من آتيك الغداة أو عشيها[(٢)].

- إطلاق الوصف بالبعد على ما لا وجود له البتة:

من عادات العرب القولية: إطلاق وصف البعيد على الشيء الذي لا وجود له في الحقيقة أصلاً، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [الحج: ١٢]، فإن قيل: قد قال: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ﴾ [الحج: ١٣]، ولا نفع في عبادة الصنم أصلاً؟ قيل: هذا على عادة العرب، فإنهم يقولون للشيء الذي لا وجود له أصلاً بعيد، كقوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًاۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]، أي: لا رَجْعَ أصلاً، فلما كان نفع الصنم بعيداً، على معنى: أنه لا نفع فيه أصلاً، قيل: ضرُّه أقرب؛ لأن الضررَ حاصلٌ، بخلاف النفع[(٣)].

---

(١) شرح ديوان الحماسة: ١٦١.

(٢) القرطبي: ١٩/ ٢١٠، وفتح القدير: ٧/ ٤١٦، والتحرير والتنوير: ١٦/ ٩١.

(٣) البغوي: ٥/ ٣٦٩.

- مخاطبة الواحد بلفظ الجمع:

من عادات العرب القولية: مخاطبة الواحد بلفظ الجمع على سبيل التعظيم، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، والآية تخبر عن حال المحتضر من الكافرين أو المفرطين في أمره تعالى، عندما يشرف على الخروج من الدنيا ويشاهد ما أُعِدَّ له من العذاب يقول: رب أرجعوني إلى الدنيا، ولم يَقُلْ: أَرْجِعْني، وهو يسأل اللهَ وحدَه الرَّجْعَةَ، وذلك على عادة العرب، فإنهم يخاطبون الواحد بلفظ الجمع على وجه التعظيم، ولا أعظم من الله تعالى، كما أخبر الله تعالى عن نفسه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ومثلهُ كثير في القرآن[١].

- تذكير المؤنث وتأنيث المذكر:

من عادة العرب القولية: تذكير المؤنث إذا أضافوه إلى مذكر، وتأنيث المذكر إذا أضافوه إلى مؤنث، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، والمعنى: إن نشأ ننزل على الكافرين معجزة من السماء مُخَوِّفة لهم تُجْبِرُهُمْ على الإيمان، فتصير أعناقهم خاضعة ذليلة، ولكننا لم نشأ ذلك؛ لأن الإيمان الصحيح ما كان اختياراً. وقد رد الخضوع على المضمر الذي أضاف الأعناق إليه. وقال قوم: ذَكَّر الصفة لمجاورتها المذكر، وهو قوله: «هم» على عادة العرب في تذكير المؤنث إذا أضافوه إلى مذكر، وتأنيث المذكر إذا أضافوه إلى مؤنث[٢].

---

(١) البغوي: ٥/ ٤٢٨، الخازن: ٤/ ٤٧٤

(٢) البغوي: ٦/ ١٠٦.

- التكرار بِهَدَفِ الإبلاغ والإشباع والاتساع:

من عادات العرب القولية: تكرارهم الكلام لغاية هي الإبلاغ والإشباع والاتساع، وقد جاء قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] مطبقاً هذه العادة، إذ كرر سبحانه هذه الآية في هذه السورة تقريراً للنعمة وتأكيداً في التذكير بها على عادة العرب في الإبلاغ والإشباع والاتساع، يعدد على الخلق آلاءه، ويُفَصِّل بين كل نعمتين بما ينبههم عليها، كقول الرجل لمن أحسن إليه وتابع عليه بالأيادي وهو ينكرها ويكفرها: ألم تكن فقيراً فأغنيتك، أفتنكر هذا؟ ألم تكن عُرْياناً فكَسَوْتُك أفتنكر هذا؟ ألم تَكُ خاملاً فعززتك أفتنكر هذا؟ ومثل هذا التكرار شائع في كلام العرب، حَسَنٌ تقريراً[(١)].

- النكرة إذا أعيدت نكرة فالثاني غير الأول، والمعرفة بالعكس:

من عادات العرب القولية: أنهم إذا ذكروا اسماً معرفاً، ثم أعادوه كان الثاني هو الأول، وإذا ذكروا نكرة ثم أعادوها مثلها صارا اثنين، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]، إذ كرر الله تعالى العُسْرَ بلفظ المعرفة واليسر بلفظ النكرة، ومن عادة العرب إذا ذكرت اسماً معرفاً، ثم أعادته كان الثاني هو الأول، وإذا ذَكَرَتْ نكرةً، ثم أعادته مثلَه صار اثنين، وإذا أعادته معرفة فالثاني هو الأول، كقولك: إذا كسبت درهماً أنفقت درهماً، فالثاني غير الأول، وإذا قلت: إذا كسبتَ درهماً فأنفق الدرهم، فالثاني هو الأول، فالعسر في الآية مكرر بلفظ التعريف، فكان عسراً واحداً، واليسر مكرر بلفظ التنكير، فكانا يُسْرَين، فكأنه قال: فإن مع العسر يسراً، إن مع ذلك العسر يسراً آخر، وهذا مبني على أن تنكير

(١) البغوي: ٧/ ٤٤٣، وفتح القدير: ٧/ ١٠٢.

﴿يُسۡرًا﴾ للتفخيم وتعريف العسر للعهد، أي: العسر الذي أنتم عليه أو الجنس، أي: الذي يعرفه كل أحد، فيكون اليسرُ الثاني مغايراً للأول، بخلاف العُسْرِ(١).

- إطلاق الجزء وإرادة الكل:

من عادات العرب القولية: تعبيرهم ببعض الشيء مع إرادتهم الكل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] ﴿تَبَّتۡ﴾ أي: خابَتْ وخسرت يدا أبي لهب، أي: هو، وقد ذكرت الآية الكريمة اليدين، وليستا المخصوصتين بالهلاك من عين صاحبهما، بل المراد هلاك أبي لهب بالكلية، وذلك وفق عادة العرب في التعبير ببعض الشيء عن كله(٢).

---

(١) البغوي: ٨/ ٤٦٥. قال البقاعي: «ذكر في الكشف: قال: واعلم أن المراد أن هذا هو الأصل عند الإطلاق وخلو المقام عن القرائن، وإلا فقد تعاد النكرة مع عدم المغايرة كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞ﴾ [الزخرف: ٨٤]، ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ﴾ [الأنعام: ٣٧]، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾ [الروم: ٥٤] يعني قوة الشباب، ومنه باب التأكيد اللفظي، وقد تعاد النكرة معرفة مع المغايرة كقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾ إلى قوله: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٥، ١٥٦]، وقال غيره: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ [النساء: ١٢٨] المراد بالنكرة خاص وهو الصلح بين الزوجين، وبالمعرفة عام في كل صلح جائز ﴿زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، فإن الشيء لا يكون فوق نفسه...» انتهى. قال: «وقد تعاد المعرفة معرفة مع المغايرة كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [المائدة: ٤٨]. وقال غيره: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] الأول عام والثاني خاص، ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] الأول العمل والثاني الثواب، ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ [المائدة: ٤٥] الأولى القاتلة والثانية المقتولة...» انتهى. قال: «وقد تعاد المعرفة نكرة مع عدم المغايرة، كقوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ [الكهف: ١١٠]». نظم الدرر: ٩/ ٤٥٩. وانظر: الخازن: ٦/ ٢٨٢.

(٢) معالم التنزيل: ٨/ ٥٧٨، وزاد المسير: ٦/ ١٩٨، ولباب التأويل: ٦/ ٣٢٩.

- وَصْفُ الشيء بما يُشْتق منه على سبيل المبالغة:

من عادات العرب القولية: وصف الشيء بما يشتق منه على سبيل المبالغة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤] فالمقنطرة وصف للقناطير مع اتحاد مادة الاشتقاق بين اللفظين، وقد جاء ذلك على سبيل المبالغة، قال الآلوسي: «ومن عادة العرب أن يصفوا الشيء بما يشتق منه للمبالغة كظل ظليل، وهو كثير في وزن فاعل، ويرد في المفعول كقوله تعالى: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢] و﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]، وقيل: المقنطرة المضعفة، وخصها بعضهم بتسعة قناطير، وقيل: المقنطرة المحكمة المحصنة من قنطرت الشيء إذا عقدته وأحكمته، وقيل: المضروبة دنانير أو دراهم، وقيل: المنضدة التي بعضها فوق بعض، وقيل: المدفونة المكنوزة[(١)]، والاختلاف هنا اختلاف تنوع إذ كلُّ الأقوالِ تدورُ حول المبالغة في الحب غير المحدود لمادة المال أيّاً كان نوعها.

- الاكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر:

من عادات العرب القولية: الاكتفاءُ بِذِكْر أحدِ الضدَّين عن ذكر الآخر، ومن ذلك ورود قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤]، وذلك في شأن أهل الكتاب، الذين منهم جماعة مستقيمة على أمر الله ذكرت أوصافها في الآي، وأخرى ليست كذلك، لم تذكر لنكتة هي: الاكتفاء بذكر أحد الضدين دليلاً على وجود الضد، قال الآلوسي: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات الجليلة الشأن

---

(١) روح المعاني: ٢/ ٤٤٥.

بسبب اتصافهم بها كما يشعر به العدول عن الضمير ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: من عداد الذين صلحت عند الله تعالى حالهم، وهذا رَدٌّ لقول اليهود: ما آمن به إلا شرارنا. وقد ذهب الجُلُّ إلى أن في الآية استغناءً بذكر أحد الفريقين عن الآخر على عادة العرب في الاكتفاء بذكر أحد الضدين عن الآخر، والمراد: ومنهم من ليسوا كذلك[1].

- وَصْفُ الشيء بالصدق يعني مدحه بصفة عامة:

من عادات العرب القولية: أنهم إذا أرادوا أن يمتدحوا شيئاً وصفوه بالصدق، وفي ضوء ذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣]، ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: منزلاً صالحاً مرضياً، وهو اسم مكان منصوب على الظرفية، ويحتمل المصدرية بتقدير مضاف، أي: مكان مبوأ وبدونه، وقد يجعل مفعولاً ثانياً، وأصل الصدق ضد الكذب، لكن جرت عادة العرب على أنهم إذا مدحوا شيئاً أضافوه إلى الصدق، فقالوا: رجل صدق، إذا كان كاملاً في صفته صالحاً للغرض المطلوب منه، كأنهم لاحظوا أن كل ما يُظن به فهو صادق[2]. إذن يجب حَمْلُ الوَصْفِ بالصدق على المدح.

- خروج صيغة التفضيل عن بابها:

من عادات العرب القولية: إخراج صيغة التفضيل عن بابها، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ [الفرقان: ١٥]، أي: قل يا أيها الرسول للمكذبين بالآخرة أهذه النار التي وُصِفتْ لكم

(١) روح المعاني: ٢/ ١٨١.

(٢) روح المعاني: ٨/ ١١٨.

- في الآيات السابقة - خيرٌ أم جنة الخلد التي وُعِد بها الخائفون من عذاب ربهم؟! ولا تعقل المفاضلة بين الجنة والنار، ولكن لما كانت عادة العرب في بيان فضل الشيء دون غيره الإتيان بصيغة أفعل تنبيهاً على أن سلب الخير عن مقابله لا يخفى على أحد، أو يكون ذلك على طريق التنزل وإرخاء العِنان؛ تنبيهاً للعاقل على أنه يكفيه في الرجوع عن الغَيِّ طروق احتمال لكون ما هو عليه مفضولاً. قال: ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾(١).

قال أبو حيان: إن ﴿خَيْرٌ﴾ هنا ليس للدلالة على الأفضلية، بل جاءت على ما جرت به عادة العرب في بيان فضل الشيء وخصوصيته بالفضل دون مقابله كقول حسان:

.... فشَرُّكما لخَيْرِكما الفِداءُ

وقولهم: الشقاء أحب إليك أم السعادة، والعسل أحلى من الخل، وقوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: ٣٣]، ولا اختصاص لذلك في استفهام أو خبر(٢).

- «له الأمر» تقال لمن كانت له الدولة، و«عليه الأمر» بخلافها:

من عادات العرب القولية: قولهم: «لفلان الأمر»، أي: له الدولة والغلب، بخلاف عليه الأمر التي تعني الظفر لعدوه، وفي ذلك جاء قوله تعالى في حق المنافقين: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فقوله سبحانه:

(١) نظم الدرر: ٦/ ٩.

(٢) البحر: ٨/ ٣٥٠، الآلوسي: ١٤/ ٥٤.

﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾ أي: هل لنا من الشيء الذي كان يعدنا به محمد، وهو النصرة والقوة شيء؟ وهذا استفهام على سبيل الإنكار، وكان غرض المنافقين من ذلك القول الاستدلال بذلك على أن رسول الله ﷺ كان كاذباً في ادعاء النصرة والعصمة من الله تعالى لأمته[1].

- ذكر ما وُضِع للتقليل مراداً به التكثير:

من عادات العرب القولية: أنهم إذا أرادوا التكثير ذكروا لفظاً وُضِعَ للتقليل، وإذا أرادوا اليقين ذكروا لفظاً وُضِعَ للشك، ومن هنا فسرت ﴿رُّبَمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢] - وهي الموضوعة في أصل الاستعمال للشك والتقليل - باليقين والجزم، إذ المقصود بها في الآية: إظهار التوقع والاستغناء عن التصريح بالغرض، فالعرب تقول: ربما ندمت على ما فعلت، ولعلك تندم على فِعْلِك، وإن كان العلم حاصلاً بكثرة الندم ووجوده بغير شك، إذ «من عادة العرب أنهم إذا أرادوا التكثير ذكروا لفظاً وُضِعَ للتقليل، وإذا أرادوا اليقين ذكروا لفظاً وُضِعَ للشكِّ»[2].

- تغليب الأكمل:

من عادات العرب القولية: تغليب الكامل على الناقص، وفي ضوء ذلك يتبين ورود كلمة: ﴿عَرَضَهُمۡ﴾ في آية البقرة [٣١]: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، دونَ عَرْضِها تغليباً للكامل على الناقص، يقول الفخر: «فإن قيل: فلما علَّمه الله تعالى - أي: آدم عليه السلام - أنواع جميعِ

(١) الفخر ٤/ ٤٢٦، وانظر: النيسابوري: ٢/ ٣٧٢، والبيضاوي: ٢/ ٣٧٢.

(٢) الفخر: ٩/ ٢٧٧، وانظر: النيسابوري: ٤/ ٤٧٤.

المُسَمَّيات، وكان في المُسَمَّيات ما لا يكون عاقلاً، فلِمَ قال: عَرَضَهُم ولم يقل عَرَضَهَا؟ قلنا: لأنه لما كان في جملتها الملائكة والإنس والجن وهم العقلاء، فغلَّب الأكمل؛ لأنه جرت عادة العرب بتغليب الكامل على الناقص»[١].

ومن عادات العرب القولية - في باب التغليب: تسمية الشيئين المتقابلين باسم أحدهما، ومن هنا فُسِّر «المشرقين» في قوله تعالى - على لسان من أعرض عن ذكر الرحمن تُجاه قرينه من الشياطين -: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨] بالمشرق والمغرب، والمعنى: وددت لو حصل بيني وبينك بعدٌ على أعظم الوجوه، كبعد ما بين المشرق والمغرب، ومن هذا القبيل قول الفرزدق[٢]:

أَخَذْنَا بآفاقِ السَّماءِ عليكمُ لنا قَمَرَاها والنُّجومُ الطَّوالعُ

يريد الشمس والقمر. ويقولون للغداة والعصر: العصران، ولأبي بكر وعمر: العمران، وللماء والتمر: الأسودان، ولصلاتي المغرب والعشاء العشاءان، وكلٌّ محمول على التغليب[٣].

ومن عادات العرب القولية - في باب التغليب: التغليب لحكمة، كتغليبهم جَمْعَ مَنْ يعقل إذا كان معه من لا يعقل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ﴾ [النور: ٤٥].

بل أبلغ من ذلك أنهم إذا وصفوا ما لا يعقل بصفة من يعقل غَلَّبوا فيه من يعقل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] جمعهم جمع من يعقل؛ لوصفهم بالسجود الذي هو صفة من يعقل،

---

(١) مفاتيح الغيب: ٢/ ١٦٢.

(٢) ديوانه ٥١٩، اللسان: شرق: ١٠/ ١٦٣.

(٣) الفخر: ١٣/ ٤٧٦، وانظر: تهذيب اللغة: ساد ١٣/ ٣٣.

وكتغليبهم الكثرة على القلة، حتى إنهم يصفون بالكرم والبخل جمعاً أكثرهم متصف بالكرم أو البخل[1].

- إضافة الأعمال إلى اليد:

من عادات العرب القولية: إضافتهم الأعمال إلى اليد خصوصاً، مع إرادتهم كل ما صدر من الأعضاء، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ١٠] إذ قيدت الآية ما قدمه الكافر من عمل بيديه فحسب، والمراد ما فعل من المعاصي، وما اكتسب من الآثام بصفة عامة، بيد أو بغير يد، ولكنه «جرت عادة العرب أن تضيف الأعمال إلى اليد؛ لأنها آلة أكثر العمل»[2].

- الاستفهام عما مضى مع التيقن بأن المخاطب لا علم له بالمستفهَم عنه:

من عادات العرب القولية: الاستفهام عَمَّا مضى، مع التيقن بأن المخاطب لا علم له بالمستفهَم عنه، لفتاً للنظر وتنبهاً على الاهتمام بشأن الخبر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]، فهو خطاب للنبي ﷺ ولا علم له بما مضى، ولكنه خوطب بالاستفهام على عادة العرب في الإعلام بالأمور الماضية وإن كان المخبِر عالماً بأن المخاطب لا علم له بذلك؛ لأن المقصودَ ليس إلا التنبيهَ على أن ذلك الأمر مما ينبغي الاهتمام به والبحث فيه ليعرف ما فيه من الأمور الجليلة. قال أبو حيان: الاستفهام هنا «تقرير لتجتمع نفس المخاطب، كما تبدأ المرء إذا أردت أن تحدثه بعجيب فتقرره: هل سمعت ذلك أم لا؟ فكأنك تقتضي بأن يقول: لا، ويستطعمك الحديث»[3].

---

(١) الإحكام لابن حزم: ٢/ ٢٨٠.

(٢) نظم الدرر: ٥/ ٣٤٧.

(٣) نظم الدرر: ٨/ ٢٠١، وانظر: البحر المحيط: ١٠/ ١٣٨.

- إذا عدلت العرب بالشيء عن معناه نقصت حروفه:

من عادات العرب القولية: أنها إذا عدلت عن الشيء نقصت حروفه كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ [الفجر: ٤] ولم يقل: «يسري» بالياء؛ لأن عادة العرب أنها إذا عدلت بالشيء عن معناه نقصت حروفه، والليل لما كان لا يَسْرِي وإنما يُسْرى فيه، نقص منه حرف ليدل مخالفة الظاهر في اللفظ على مخالفته في المعنى وهو معنى دقيق لا يفطن إليه إلا الألِبَّاء، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم: ٢٨] الأصل بغية، فلما حول عن فاعل نقص منه حرف(١).

- يقولون: خُلِقَ من كذا مبالغة في وصفه:

من عادات العرب القولية: قولهم: خُلِق فلان من كذا، مبالغة في وصفه، وقد وافق القرآن هذه العادة، فقال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، ومعلوم أصل خلق الإنسان، ولكن الآية تبيِّن أن الإنسان

(١) البرهان للزركشي: ٣/ ١٠٧، وانظر: المحرر الوجيز: ٢/ ٤٠١، والقرطبي: ٢٠/ ٤٢، والإتقان: ١/ ٢٩٤، وروح المعاني: ٢٠/ ١٤٧. قال القرطبي: «وقرأ ابن كثير وابن محيصن ويعقوب بإثبات الياء في الحالين على الأصل؛ لأنها ليست بمجزومة فثبتت فيها الياء. وقرأ نافع وأبو عمرو بإثباتها في الوصل وبحذفها في الوقف، وروي عن الكسائي، قال أبو عبيد: كان الكسائي يقول مرة بإثبات الياء في الوصل وبحذفها في الوقف اتباعاً للمصحف، ثم رجع إلى حذف الياء في الحالين جميعاً؛ لأنه رأس آية، وهي قراءة أهل الشام والكوفة، واختيار أبي عبيد اتباعاً للخط؛ لأنها وقعت في المصحف بغير ياء. قال الخليل: تسقط الياء منها اتفاقاً لرؤوس الآي. قال الفراء: قد تحذف العرب الياء وتكتفي بكسر ما قبلها، وأنشد بعضهم:

كَفَّاكَ كَفٌّ ما تُلِيق دِرهماً ... جُوداً وأخرى تُعْطِ بالسيف الدَّما»

تفسير القرطبي: ٢٠/ ٤٢.

قال المؤرِّج السَّدوسي: سألت الأخفش عن العلة في إسقاط الياء من يسر، فقال: لا أجيبك حتى تبيت على باب داري سنة، فبتُّ على باب داره سنة، فقال: الليل لا يسري وإنما يُسْرى فيه، فهو مصروف، وكل ما صرفته عن جهته بخسته من إعرابه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ ولم يقل: بغية؛ لأنه صرفها عن باغية. القرطبي: ٢٠/ ٤٢.

خُلِقَ مِنْ عَجَل أي: خلق عجولاً، يستعجل الأشياء قبل وقوعها، وهذا الوجه متأكد بقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]. والعرب تقول: خُلق من كذا للمبالغة، كما يقولون للرجل الذكي: هو نار تشتعل، وللرجل السخي: خُلق من كرم، والعرب قد تسمي المرء بما يكْثُر منه، فتقول: ما أنت إلا أكلٌ ونومٌ، وما هو إلا إقبال وإدبار، ومن ذلك قول الخنساء[1]:

تَـرْتَـعُ ما غَفَلَتْ حتى إذا ادَّكَـرَتْ فـإنـمـا هـي إِقْـبـالٌ وإِدْبـارُ

قال سيبويه[2]: «جعلُها الإِقْبالَ والإِدْبارَ فجاز على سعة الكلام». قال ابن جني: «الأَحسن في هذا أَن يقول: كأَنها خُلقت من الإِقبال والإِدْبار، لا على أَن يكون من باب حَذْفِ المضاف، أَي: هي ذاتُ إِقبال وإِدبار»[3].

- استعمال الأخذ بالناصية بمعنى القدرة على المأخوذ بها:

من عادات العرب القولية: استعمالُ الأَخْذِ بالناصية بمعنى القدرة على المأخوذ بها، وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]، إذ برهن نبي الله هود عليه السلام على عدم قدرة قومه على ضره مع توكله عليه سبحانه بقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ﴾، أي: إلا هو مالك لها قادر عليها يُصَرِّفُها كيف يشاء غير مستعصية عليه سبحانه، والناصية مُقَدَّم الرأس، وتطلق على الشعر النابت عليها، واستعمال الأخذ بالناصية عرف في القدرة على الحيوان، وكانت العرب تَجُزُّ الأسيرَ الممنون عليه، علامة على أنه قد قُدِرَ عليه، وقبض على ناصيته[4].

---

(١) ديوان الخنساء: ٧٢.

(٢) الكتاب ١/ ٣٣٧.

(٣) اللسان: قبل، ١١/ ٥٣٤، وانظر: مفاتيح الغيب: ٢٢/ ١٤٨، أضواء البيان: ٢/ ٢٠٤.

(٤) المحرر الوجيز: ٣/ ١٨١، وروح المعاني: ١٢/ ٨٣.

- وَصْفُهم بالهواءِ كلَّ شيءٍ خلا من مضمون:

من عادات العرب القولية: وصفهم الشيء الخالي من أي مضمون بوصف «هواء»، ومن ذلك ما نطق القرآن به في قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣] هذه الآية الكريمة تتحدث عن الظالمين يوم يقومون من قبورهم مسرعين رافعي رؤوسهم لا يبصرون شيئاً لهول القيامة، وأفئدتهم هواء لا شيء فيها، ومنه سمي ما بين السماء والأرض هواء؛ لخلوه، وقيل: خالية لا تعي شيئاً ولا تعقل من الخوف، وقيل: جوفاء لا عقول لها، والعرب تسمي كل أجوف خِلْواً هواءً، قيل: وأفئدتهم هواء، أي: متمردة تمور في أجوافهم، ليس لها مكان تستقر فيه، وحقيقة المعنى: أن القلوب زائلة عن أماكنها والأبصار شاخصة من هول ذلك اليوم(١).

- إضافة الفعل إلى ما لم يُمْكن منه الفعل:

من عادات العرب القولية: إضافتهم الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما مما لا يمكن منه الفعل، ومن ذلك ما جاء وصفاً للقيامة في قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ٣]، الخفض والرفع يستعملان عند العرب في المكان والمكانة والعزِّ والمهانة، ونسب سبحانه وتعالى الرفع والخفض إلى القيامة توسعاً على عادة العرب في إضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما مما لا يمكن منه الفعل، والرافع والخافض في الحقيقة هو الله تعالى. والعرب يقولون: ليل قائم، ونهار صائم، أي: قمت في ليلك وصمت في نهارك، وفي التنزيل: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣].

ومن ذلك أيضاً ما ورد في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]، إذ إسناد الربح إلى التجارة والمرادُ التاجر؛

(١) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٥٠٣.

لأن من عادة العرب قولهم: ربح بيعك، وخسرت صفقتك، والمعنى: ربحت وخسرت في بيعك، أي فما ربحوا في تجارتهم. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧] معنى والنهار مبصراً أي: مضيئاً لتهتدوا به، والمبصر: الذي يُبْصِر، والنهار يُبْصَرُ فيه، وقال: ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ تجوزاً وتوسعاً على عادة العرب، قال جرير[1]:

لقد لُمْتِنا يا أمَّ غَيْلانَ في السُّرى ونِمْتِ وما ليلُ المَطِيّ بنائمِ

- التعبير بـ ﴿مَادَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ ونحوها للدلالة على دوام الشيء وتأبيده:

من عادات العرب القولية: تعبيرهم عن دوام الشيء وتأبيده بقولهم: ما دامت السموات والأرض ونحوها، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، أي: دوام السموات والأرض، والتقدير: وقت ذلك، وقد أجرى ذلك على عادة العرب في الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده، كقولهم: لا آتيك ما جَنَّ ليلٌ، أو سالَ سَيْلٌ، وما اختلف الليل والنهار، وما ناح الحمام، وما دامت السموات والأرض، ونحو هذا مما يريدون به طولاً من غير نهاية، فأفهمهم الله تخليد الكفرة بذلك، وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض[2].

- السؤال عَمَّا يُعْرَفُ بداهةً لنكتة:

من عادات العرب القولية: سؤالهم عما يُعرف بداهة، لغاية هي ضم الإقرار باللسان إلى المعرفة القلبية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧] والله سبحانه بكل شيء عليم، والكليم عليه السلام يعلم يقيناً ما بيمينه من كونها عصا،

(١) ديوان جرير: ٢/ ٩٩٣، القرطبي: ١/ ٢١١، ٨/ ٣٦٠، وتفسير القرآن العظيم: ٤/ ٣٥١، واللباب: ١٥/ ٧٢، فتح القدير: ١/ ٤١.

(٢) القرطبي: ٩/ ٩٩، وانظر: البغوي: ٤/ ٢٠٠، وتفسير القرآن العظيم: ٤/ ٣٥١، واللباب: ٩/ ١٦٧.

ومن هنا كان السؤال سؤال تقرير، والحكمة في هذا السؤال: تنبيه نبي الله موسى عليه السلام وتوقيفه على أنها عصا، حتى إذا قلبها حية علم أنه معجزة عظيمة. وهذا على عادة العرب، يقول الرجل لغيره: هل تعرف هذا؟ وهو لا يشك أنه يعرفه، ويريد أن ينضم إقراره بلسانه إلى معرفته بقلبه[1].

- أصل الشيء أمُّه:

من عادات العرب القولية: تسميتُهم أصلَ كل شيء أمه، وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

وأم القرى أصل القرى، وهي مكة المكرمة، وسميت بهذا الاسم إجلالاً لها؛ لأن فيها البيت ومقام إبراهيم، وأم الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤] أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ، والقرآن محفوظ فيه من التحريف والتبديل والتغيير. «والعرب تُسَمِّي أصل كل شيء أمه» حتى يقال: هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان[2].

- استعمال «إنْ» لغير شك:

من عادات العرب القولية: استعمالهم «إن» التي للشك في غير الشك، وقد جاء القرآن بذلك، في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣] الخطاب في الآية الكريمة للكافرين، و«إنْ» لغير شك؛ لأنَّ الله تعالى علم أنهم مرتابون، ولكن هذه «عادة العرب، يقول الرجل لابنه: «إن كنت ابني فأَطِعْني» وهو على يقين من أنه ابنه[3].

---

(١) البغوي: ٥/ ٢٦٨، واللباب: ١١/ ١٤٧.
(٢) مفاتيح الغيب: ٢٧/ ١٢٧، وانظر: المخصص لابن سيده: ٤/ ١١٦.
(٣) زاد المسير: ١/ ٣٣.

- **«أهمته نفسه» تقال للخائف:**

من عادات العرب القولية: قولهم: قد أهمته نفسه، يعنون بذلك أنه خائف وجل، وفي ضوء ذلك جاء قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤] هؤلاء الذين أهمتهم أنفسهم ثلة من المنافقين كان همهم خلاص أنفسهم. قال أبو مسلم: من عادة العرب أن يقولوا لمن خاف، قد أَهَمَّته نفسه، فهؤلاء المنافقون لشدة خوفهم من القتل طار النوم عنهم؛ لأنه عند الخوف على النفس يصير الإنسان ذاهلاً عن كل ما سواها، ولأنهم كانوا مكذبين بالرسول ﷺ في قلوبهم، فلا جَرَمَ عَظُم الخوف في قلوبهم[1].

- **«كادت السموات تنشق» للإخبار عن الشيء العظيم:**

من عادات العرب القولية: أنهم يخبرون عن الشيء العظيم بقولهم: «كادت السموات أن تنشق له» وعلى ذلك حمل قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥].

أي: تكاد السموات تتشقق مِنْ عظمة مَنْ فوقهن وهو الله تعالى، وذلك من شدة هيبتهن من الله، ويقال: مِنْ ثِقَلِ الملائكةِ الذين هم فوق السموات لكثرتهم، ويقال: إنه على عادة العرب إذا أخبروا عن شيء عظيم، قالوا: كادت السموات تنشقُّ له، وهذا لقُبْح قول المشركين ولجرأتهم على الله تعالى، ومن هذا القبيل قوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۞ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٩ - ٩١][2].

---

(١) الفخر: ٤/ ٤٢٤.

(٢) لطائف الإشارات للقشيري: ٣/ ٣٤٢.

- قولهم «تحيتك الضرب» تهكُّماً:

من العادات العربية القولية: قول العرب تهكُّماً: تحيتك الضرب، وعتابك السيف، وقد نطق القرآن الكريم بمفهوم ذلك، فقال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨] حيث بيَّن الله تعالى في الآية السابقة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾ [النساء: ١٣٧] أنه لا يغفر للمنافقين كفرهم، ولا يهديهم إلى الجنة، ثم قال: وكما لا يوصلهم إلى دار الثواب فإنه مع ذلك يوصلهم إلى أعظم أنواع العقاب، وهو المراد من قوله: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وقوله: ﴿بَشِّرِ﴾ تهكم بهم، والعرب تقول: تحيتك الضرب، وعتابك السيف[1].

- «فَسَقَت الرُّطَبَةُ» بمعنى خَرَجَتْ:

من عادات العرب القولية: قولهم: فَسَقَتِ الرُّطَبَة من قشرها بمعنى خرجت، وقد جاء القرآن الكريم بكلمة فسق في آيات متعددة منها قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] يعني به خرج عن طاعته واتباع أمره.

قال أبو جعفر: وأصلُ الفسق في كلام العرب: الخروجُ عن الشيء. يقال منه: فسقت الرُّطَبَة إذا خرجت من قشرها. ومن ذلك سُمِّيت الفأرةُ فُوَيْسِقة؛ لخروجها عن جُحرها، فكذلك المنافق والكافر سُمِّيا فاسِقَيْن، لخروجهما عن طاعة ربهما.

وقال رؤبة[2]:

يَهْوِينَ في نَجْدٍ وغَوْراً غائِرا ... فَواسِقاً عن قَصْدِها جَوائِرا

(١) مفاتيح الغيب: ١١/ ٦٣.

(٢) انظر: جامع البيان: ١/ ٤٠٩، ومفاتيح الغيب: ٢١/ ١١٦.

- تسمية النساء «بيضات الخدور»:

من عادات العرب القولية: تسمية النساء بالبيض، ويقولون لهن: بَيْضات الخدور، تشبيهاً ببيض النعام المكنون في الصفاء، وقد نطق القرآن الكريم بذلك وصفاً لنساء عباد الله المخلصين في الجنة، فقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩] أي: كأن نساء أهل الجنة بَيْضٌ مَصُون لم تمسه الأيدي، فالمكنون من كننت الشيء إذا سترته عن أيدي العابثين.

ومعنى هذا التشبيه: أن ظاهر البيض بياض يشوبه قليل من الصفرة، فإذا كان مكنوناً كان مصوناً عن الغبرة والقترة، فكان هذا اللون في غاية الحسن، والعرب كانوا يسمون النساء بيضات الخدور، من ذلك قول امرئ القيس(١):

وبَيْضَةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤها تَمَتَّعْتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ

- تسمية البناء المرتفع المستغني بنفسه برجاً:

من عادات العرب القولية: تسمية البناء المرتفع المستغني بنفسه برجاً، وقد جاء القرآن الكريم بهذا، فقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١] المعنى: تمجَّد وتعظم الذي جعل في السماء نجوماً تسير في منازلها بحكمة فائقة، وجعل فيها شمساً تضيء وقمراً ينير الظلمات، والعرب تُسَمِّي البناء المرتفع المستغني بنفسه برجاً تشبيهاً ببروج السماء، ومنه قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] أي: حصونٍ قوية(٢).

---

(١) ديوان امرئ القيس: ١٣، وانظر مفاتيح الغيب: ٢٦/ ١٢٠، وروح المعاني: ١٧/ ١١٤.

(٢) المحرر الوجيز: ٤/ ٢١٧.

- السَّجْر: المَلْء:

من عادات العرب القولية: تفسير السَّجْر بالمَلْء، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] معناها: ملئت ماءً، والعرب تقول: سَجَرْتُ الحوض أسجره سجراً، إذا ملأته وهو مسجور، والمسجور والساجر في اللغة: الملآن، وروى الربيع بن خُثَيْم: سُجِّرت: فاضت ومُلِئَتْ، وقاله الكلبي ومقاتل والحسن والضحاك. قال ابن أبي زَمَنين: سُجِّرت: حقيقته مُلِئت، فيفيض بعضها إلى بعض فتصير شيئاً واحداً، وهو معنى قول الحسن.

وقيل: أرسل عذبها على مالحها ومالحها على عذبها، حتى امتلأت.

عن الضحاك ومجاهد: أي فجرت فصارت بحراً واحداً... وذلك بأن يرفع الله الحاجز الذي ذكره في قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠]، فإذا رفع ذلك البرزخ تفجرت مياه البحار، فعمَّت الأرض كلَّها، وصارت البحار بحراً واحداً. وقيل: صارت بحراً واحداً من الحميم لأهل النار(١).

- تسمية العرب للشيء باسمِه المتقدِّم وإن كان قد تجاوزه:

من عادات العرب القولية: تسميتهم للشيء باسمه المتقدم زماناً، وإن كان قد تجاوز مرحلة هذا الاسم، وعلى ذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ٤] أي: النوق الحوامِلُ التي في بطونها أولادها، الواحدة عُشَرَاء، أو التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع، وبعدما تضع أيضاً، ومن عادة العرب أن يسموا الشيء باسمه المتقدم، وإن كان قد جاوز ذلك، يقول الرجل لفرسه وقد قرح: هاتوا مُهْري وقَرِّبوا مهري، يسميه بمتقدم اسمه، قال

(١) القرطبي: ١٩/ ٢٣٠، روح المعاني ٣/ ٤٠، وفتح القدير: ٧/ ٢٢٧.

عنترة مخاطباً امرأته، وكانت لا تزال تذكر خَيْله وتلومه في فرسٍ كان يُؤْثره على سائر خيله، ويسقيه اللَّبن:

لا تَـذْكُـري مُـهْـرِي ومـا أطعَمْتُه فيكونَ جِلْدُكُ مثلَ جِلْدِ الأجـربِ[1]

وإنما خَصَّ العِشار بالذِّكْرِ، لأنها أعزُّ ما تكون على العرب، وليس يعطلها أهلها إلا حال القيامة، وهذا على وجه المثل، لأنه في القيامة لا تكون ناقة عُشَراء، ولكن أراد به المثل، أن هول القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عُشَراءُ لعطلها واشتغل بنفسه[2].

- مخاطبة الرجل وإرادة غيره:

من عادات العرب القولية: مخاطبتهم للرجل وإرادتهم غيره، وعلى ذلك ورد قوله تعالى خطاباً لرسولنا ﷺ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤]، المعنى فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ يعني: القرآن، فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ، فيخبرونك أنه مكتوب عندهم في التوراة، قيل: هذا خطاب للرسول ﷺ والمراد به غيره على عادة العرب، فإنهم يخاطبون الرجل ويريدون به غيره، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ١، ٢] خاطب النبي ﷺ والمراد به المؤمنون، بدليل أنه قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ولم يقل: «بما تعمل» وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ﴾ [الطلاق: ١] قال الفراء تعليقاً على آية يونس المتقدمة: «عَلِمَ الله سبحانه

(١) ديوان عنترة: ٤٢.

(٢) القرطبي: ١٩/ ٢٢٨، واللباب: ١٦/ ٢٣٩.

وتعالى أن رسوله غيرُ شاكٍّ، لكنه ذكره على عادة العرب، يقول الواحد منهم لعبده: إنْ كنتَ عبدي فأطعني، ويقول لولده: افعل كذا وكذا إن كنت ابني، ولا يكون بذلك على وجه الشك»(١).

- لا وَزَر ولا نَفَق أي: لا مَفَرَّ ولا مَهْرَب:

من عادات العرب القولية: قولهم: لا وزَرَ لك مني ولا نَفَق، يعنون لا مهرب ولا مأوى للجاني، وقد جاء شبيه ذلك في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [هود: ٢٠] حيث إنه لسائل أن يسأل: لماذا قيد هنا عدم الإعجاز بكونه في الأرض فحسب، كما قيده أيضاً في آيتي النور [٥٧] والشورىٰ [٣١]، ومعلوم أنه لا معجز لله في الأرض ولا في السماء، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [العنكبوت: ٢٢]؟ قلت: لأن هذه الآية ومثيلاتها جاءت على عادة العرب كما نقل ابن الجوزي إذ قال: «لما كانت عادة العرب جارية بقولهم: لا وزَرَ لك مني ولا نَفَق، يعنون بالوَزَر: الجبل، والنفق: السَّرَبَ، وكلاهما يلجأ إليه الخائف، أعلم الله تعالى أن هؤلاء الكافرين لا يسبقونه هرباً، ولا يجدون ما يحجز بينهم وبين عذابه من جميع ما يستر من الأرض ويُلجأ إليه»(٢).

- «كيف بك إذا كان كذا» تقال فيما يتوقع حصوله:

من عادات العرب القولية: قولهم في الشيء الذي يتوقعونه: «كيف بك إذا كان كذا وكذا»، و«إذا فعل فلان كذا»، و«إذا جاء وقت كذا»، ومن عادة العرب عند التبشير والإنذار أن يقولوا أيضاً: «كيف أنت إذا كان كذا وكذا»؟

---

(١) البغوي: ٤/ ١٥٠.

(٢) زاد المسير: ٣/ ٣٣٢.

ومن هنا حمل الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] على هذه العادة العربية والسنة القولية، إذ إنه سيأتي يوم القيامة الرسل ليشهدوا على أممهم بما عملوا وسيأتي نبينا ﷺ ليكون شهيداً على أمته أنه بلغهم رسالة ربِّه سبحانه. ومثل ما سبق قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢]. وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٢٥].

قال الفخر الرازي: «من عادة العرب أنهم يقولون في الشيء الذي يتوقعونه: كيف بك إذا كان كذا وكذا، وإذا فعل فلان كذا، وإذا جاء وقت كذا؟ ومن عادة العرب عند التبشير والإنذار أن يقولوا أيضاً: كيف أنت إذا كان كذا وكذا»[(١)]؟

- صدوُر التعجُّب من الله تعالى راجع إلى الخلق:

من عادات العرب القولية: إيرادهم التعجب في مخاطباتهم، وعلى ذلك حُمِلَ صدور التعجب من الله تعالى، مع رجوعه إلى الخلق كما في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠] على عادة العرب في الخطاب فحسب، والتعجب هو: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ ومعناه كما قال الرازي: كيف يصدون - والخطاب للمشركين - ويصرفون عن الحق بعد وضوح الدليل، حتى يجعلوا لله ولداً! وهذا التعجب إنما هو راجع إلى الخلق على عادة العرب في مخاطباتهم، والله تعالى عَجَّبَ نبيه مِنْ تَرْكِهم الحق وإصرارهم على الباطل[(٢)].

---

(١) الفخر: ٥/ ٢١٠، ٢٦٢، وانظر: النيسابوري: ٣/ ١٩، البيضاوي: ٣/ ١٩، اللباب: ٥/ ٢٢٣.

(٢) الفخر: ٨/ ٢، وانظر: النيسابوري: ٣/ ٢٥٥، واللباب: ٨/ ٢٦٣.

المبحث الثالث

عادات العرب القولية في ضوء آيات العبادات

في المبحث السابق ذكرنا أمثلة من عادات العرب القولية أتت في ضوء بعض آي القرآن المتحدثة عن العقيدة، وفي هذا المبحث نورد نماذج لبعض هذه العادات لكن في ضوء آيات عُنيتْ بالعبادة، من ذلك:

- الثناء قبل سؤال الحاجة:

من عادات العرب القولية: تقديمهم الثناء قبل سؤال الحاجة، وقد جاء في ضوء ذلك قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣] إذ قدَّم الأمر بالتسبيح والحمد على الأمر بالاستغفار تمهيداً لإجابة استغفاره ﷺ على عادة العرب في تقديم الثناء قبل سؤال الحاجة، كما قال ابن أبي الصَّلْت:

إذا أثْنى عليكَ المَرْءُ يوماً كَفاهُ عن تَعَرُّضِه الثَّناءُ

فإن رسول الله ﷺ لم يكن يخلو عن تسبيح الله، فأريد تسبيح يقارن الحمد على ما أعطيه من النصر والفتح ودخول الأمة في الإسلام[1].

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥، ١٨٦]. قال الفخر: «إنه تعالى أمر بالتكبير أولاً ثم رَغَّب في الدعاء ثانياً، تنبيهاً على أن الدعاء لا بد أن يكون مسبوقاً بالثناء الجميل، ألا ترى أن الخليل عليه السلام لَمَّا أراد الدعاء قدم عليه الثناء، فقال

(١) التحرير والتنوير: ٧/ ٣٤٠.

أولاً: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨] إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وكل هذا ثناء منه على الله تعالى، ثم شرع بعده في الدعاء فقال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِى حُكۡمًا وَأَلۡحِقۡنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣]، فكذا هاهنا أمر بالتكبير أولاً ثم شرع بعده في الدعاء ثانياً»(١).

- قد يكون القيد لمجرد بيان الواقع فحسب:

من عادات العرب القولية: الإتيان بقيد لمجرد بيان الواقع فحسب، ومن ذلك: القيد الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٧] التقييد في الآية بالجهالة قيل: لبيان الواقع؛ لأن كل من يعمل السوء لا يعمله إلا بجهالة.

فليس المعنى أنه تعالى يغفر لمن يعمل السوء بجهالة، ولا يغفر لمن عمله بغير جهالة، بل المراد أن جميع من تاب هذه سبيله، وإنما خَصَّ من يعمل السوء بجهالة؛ لأن أكثر من يأتي الذنوب يأتيها بقلة فكر في عاقبة الأمر أو عند غلبة الشهوة أو في جهالة الشباب، فذكر الأكثر على عادة العرب في مثل ذلك، وعلى القولَيْن لا مفهوم للقيد(٢).

- قول العرب: «أما علمت» يفيد الإفهام وإزالة الشك:

من عادات العرب القولية: قولهم لمن يريدون إفهامه وإزالة الشك عنه: «أما علمت» وعلى ذلك حُمِلَ قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ في الآية الكريمة: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤]، والآية في المتخلّفين عن الجهاد. قال أبو مسلم: قوله: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ وإن كان بصيغة

(١) مفاتيح الغيب: ٥/ ٨١.

(٢) الآلوسي: ١٠/ ٣٣١، وانظر: البحر: ٧/ ٣٠٣.

الاستفهام، إلا أن المقصود منه التقرير في النفس، ومن عادة العرب في إفهام المخاطب وإزالة الشك عنه أن يقولوا: أما علمت أن من علَّمك يجب عليك خدمته؟ أما علمت أن من أحسن إليك يجب عليك شكره؟ فبشَّر الله تعالى هؤلاء التائبين بقبول توبتهم وصدقاتهم، ثم زاده تأكيداً بقوله: ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١].

- التعبير بالجزء عن الكلِّ والعكس:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] عبر سبحانه وتعالى بـ «الصلاة» هنا وأراد القراءة، كما عبر بالقراءة وأراد الصلاة في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]؛ لأن كل واحد منهما مرتبط بالآخر، ولأن الصلاة تشتمل على قراءة وركوع وسجود، فهي من جملة أجزائها، فعبر بالجزء عن الجملة وبالجملة عن الجزء على عادة العرب في مثل ذلك، وهو في القرآن كثير، ومنه الحديث الصحيح: «**قَسَمتُ الصلاة بيني وبين عبدي**»[٢]، أي: قراءة الفاتحة[٣].

- تسمية ضوء الصُّبح خيطاً:

من عادات العرب القولية: تسميةُ ضوءِ الصبحِ خيطاً، وتسمية ظلام الليل المختلط به خيطاً، وقد جاء القرآن موافقاً لهذه العادة القولية فقال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

والمعنى: كلوا معشر المسلمين في ليل رمضان واشربوا حتى يتبَيَّن لكم ضياء الصباح من سواد الليل، بظهور الفجر الصادق، والعرب تسمي ضوء الصبح خيطاً

(١) الفخر: ٨/ ١٤٢، اللباب: ٨/ ٣٦١.

(٢) مسلم، كتاب: الصَّلَاةِ، باب: الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الإِمَامِ فِيمَا لاَ يُجْهَرُ فِيهِ بِالْقِرَاءَةِ ١/ ٢٥٣، برقم: ١٧٤.

(٣) القرطبي: ١٠/ ٣٤٤.

وظلام الليل المختلط به خيطاً، ومنه قول أبي دُؤاد الإيادي[1]:

فلمَّا أضاءَتْ لنا سُدْفَةٌ ولاح من الصُّبْحِ خَيْطٌ أَنارا

وقول أُمَيَّةُ بن أَبي الصَّلْت[2]:

الخَيْطُ الأَبْيَضُ ضَوْء الصُّبْحِ مُنْفَلِقٌ والخَيْطُ الاَسْودُ لَوْنُ الليلِ مَرْكُومُ

- إطلاق الحال وإرادة المحل:

من عادات العرب: تسمية الحدث باسم المحل الذي يقع فيه، ومن ذلك ما جاء به قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣].

فكلمة الغائط في قوله سبحانه: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ أصلها: «ما انخفض من الأرض، والجمع الغِيطان، أو الأغواط، وبه سُمِّيَ غُوطةُ دمشق، وكانت العرب تقصد هذا الصنف من المواضع لقضاء حاجتها تستُّراً عن أعين الناس، ثم سُمِّي الحدثُ الخارج من الإنسان غائطاً للمقارنة، وغاط في الأرض يغوط: إذا غاب»[3]، وعلى هذا المعنى نزل القرآن الكريم.

- استعمال الثياب بمعنى الجسم، والأهل، والوفاء بالعهد:

من عادات العرب القولية: استعمال الثياب كناية عن الجسم، والأهل، والوفاء بالعهد، وطهارة القلب، وهي أقوال للعلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤] استناداً إلى عادات العرب القولية.

---

(١) انظر: لسان العرب: ٧/ ٢٩٨، وتاج العروس: ١٠/ ٢٥٢. (خيط).

(٢) انظر: اللسان (خيط)، ٧/ ٢٩٨، وأضواء البيان: ١/ ٧٤.

(٣) القرطبي: ٥/ ٢٢٠، وانظر: البغوي: ٢/ ٢٢٢، والخازن: ٢/ ٩٨. فتح القدير: ١/ ٤٧٠.

فمن العلماء من فسر الثياب في الآية بالجسم، فقال: وجسمك فطهر، يعني عن المعاصي الظاهرة، ومما جاء عن العرب في الكناية عن الجسم بالثياب قول ليلى الأخيلية(١):

رَمَوْها بأَثْوابٍ خِفافٍ فلَنْ تَرَى لها شَبَهاً إلا النَّعامَ المنفَّرا

أي: ركبوا الإبل فرموها بأنفسهم.

ومن العلماء من فَسَّر الثياب في الآية بالأهل، فقالوا: وأهلك فطَهِّرْهم من الخطايا بالوعظ والتأديب؛ لأن العرب تسمي الأهل ثوباً ولباساً وإزاراً، قال الله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، أو: ونساءك فطهر باختيار المؤمنات العفائف، أو بالاستمتاع بهن في القبل دون الدبر، في الطهر لا في الحيض، حكاه ابن بحر.

ومن العلماء مَنْ فَسَّر الثيابَ بالعهد، فقال: وبعهدك وفِّ؛ لأن العرب كانت تسمي الرجل إذا نكث ولم يف بعهد الله إنه لدَنِس الثياب، وقد شملت الآية جميع ذلك مع طهارة القلب بالتوبة، كما قال مقاتل، فإن العرب تطلق الثياب عليه، كما قال امرؤ القيس(٢):

أفاطمُ مهلاً بعضَ هذا التَّدلُّلِ وإن كنتِ قدْ أَزْمَعْتِ هَجْري فأجْمِلي

وإن تك قد ساءتكِ مني خليقةٌ فَسُلِّي ثيابي من ثيابك تَنْسُلِ

- إيقاع الوقت الطويل على الوقت القصير:

كما أن من عادة العرب إيقاع الجمع على التثنية، فإن من عادتهم أيضاً إيقاعَ الوقت الطويل على الوقت القصير، نلمح ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ

(١) اللسان: (ثوب)، ١/ ٢٤٣.

(٢) ديوان امرئ القيس: ١٢، ١٣.

مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧] حيث قال سبحانه: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ﴾ وهي شهران وبعضُ الآخَرِ، على عادة العرب. «تقول العرب: له اليوم يومان لم أره، وإنما هو يوم، وبعض آخر. وتقول: زرتك العام، وأتيتك اليوم، وإنما وقع الفعل في ساعة. وفي هذا قولان:

أحدهما: أن العرب توقع الجمع على التثنية، كقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦]، وإنما يريد عائشة وصفوان رضي الله عنهما. وكذلك قوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨] يريد: داود وسليمان عليهما السلام.

والثاني: أن العرب توقع الوقت الطويل على الوقت القصير، فيقولون: قُتِل ابنُ الزبير أيامَ الحَجِّ، وإنما كان القتل في أقصر وقت[1].

- اللمس: الجماع:

من عادات العرب القولية: استعمالهم اللمس بمعنى الجماع، وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣].

حيث اختلف سعيد بن جبير مع عطاء وعبيد بن عمير في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ فقال عبيد بن عمير: هو الجماع، وقال سعيد وعطاء: هو اللمس، ثم دخلوا على ابن عباس فسألوه فقال: غُلب فريق الموالي وأصابت العرب، هو الجِماع، ولكن الله يَعِفُّ ويَكْني. وقيل: إنه قال: أخطأ المَوْليان وأصاب العربي، الملامسة: النكاح، ولكن الله يَكْنِي ويَعِفُّ[2].

---

(١) زاد المسير: ١/ ١٨٩.

(٢) انظر: جامع البيان: ٥/ ١٠٢، معالم التنزيل: ١/ ١١٩.

- تسميتهم المفعول باسم المصدر:

قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] الآية تثبت الشهر الذي أنزل الله فيه القرآن، القرآن الذي هو اسم لكلام الله تعالى، وهو بمعنى المقروء، كالمشروب يسمى شراباً، والمكتوب يسمى كتاباً، وعلى هذا قيل: هو مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرآناً بمعنى، قال حسان بن ثابت[١]:

ضَحَّوا بأشمَطَ عُنوانُ السُّجودِ به يُقطِّعُ اللَّيلَ تسبيحاً وقُرآنا

أي: قراءة، وفي التنزيل ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٨] أي: قراءة الفجر، ويسمى المقروء قرآناً على عادة العرب في تسميتها المفعول باسم المصدر، كتسميتهم للمعلوم علماً، وللمضروب ضَرْباً، وللمشروب شرباً، كما ذكرنا، ثم اشتهر الاستعمال في هذا، واقترن به العرف الشرعي، فصار القرآن اسماً لكلام الله، حتى إذا قيل: القرآن غير مخلوق، يراد به المقروء لا القراءة لذلك[٢].

---

(١) ديوان حسان بن ثابت: ٢١٦.

(٢) القرطبي: ٢/ ٢٩٨.

المبحث الرابع

عادات العرب القولية في ضوء آيات المعاملات

في المبحث السابق ذكرنا أمثلة من عادات العرب القولية أتت في ضوء بعض آي القرآن المتحدثة عن العبادات، وفي هذا المبحث نورد نماذج لبعض هذه العادات لكن في ضوء آيات عنيت بالمعاملات من ذلك:

- استعمال «أصلح الله فلاناً» ونحوه في مخاطبة كبار القوم فحسب:

من عادات العرب القولية: قولهم: أصلح الله الأمير، وعفا الله عنك... خطاباً لعلية القوم وسادتهم، ومن هنا حمل قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣] وهو خطاب للنبي ﷺ في شأن إذنه للمنافقين في القعود عن الجهاد، حتى يظهر له الذين صَدَقوا في اعتذارهم ويعلم الكاذبين منهم في ذلك؟ إذ بهذا تَرْك الأَولى والأكمل، ومن هنا كان لذيذ العتاب للمصطفى ﷺ، وهذا كما كانت عادة العرب في مخاطبتهم لأكابرهم بأن يقولوا: «أصلح الله الأمير والملك»، و«عفا الله عنك ما صنعت في أمري»، «رضي الله عنك ما جوابك عن كلامي»، و«عافاك الله ألا عرفت حقي» وبعد حصول العفو من الله تعالى يستحيل أن يكون قوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ وارداً على سبيل الذم والإنكار بل يحمل على ترك الأكمل والأولى، ولا سيما هذه الواقعة كانت من جنس ما يتعلق بالحروب ومصالح الدنيا(١).

- تأخير ما حَقُّه التقديم والعكس:

من عادات العرب القولية: تأخير ما حقه التقديم، وتقديم ما حقه التأخير؛ لنكتة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢]،

(١) نظم الدرر: ٣/ ٤٥٨، النيسابوري: ٤/ ١٥٤.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ مؤخرة في التلاوة، مقدمة في المعنى؛ لأن السبب في الأمر بذبح البقرة قتل النفس، فتقدير الكلام: وإِذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها، فسألتم موسى فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، ونظيرها قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ * قَيِّمًا﴾ [الكهف:١، ٢] أراد: أنزل الكتاب قيماً، ولم يجعل له عوجاً، فأخَّر المقدَّم، وقدَّم المؤخَّر، لأنه من عادة العرب.

قال رباح بن سُبَيْح يمدح الفرزدق ويهجو جريراً:

إِنَّ الـفَـرَزْدَقَ صَـخْـرَةٌ عـادِيَّـةٌ   طالَـتْ، فلَيْسَ تَنالُها الأَوْعالا[1]

أراد: طالت الأوعالَ[2].

وآية البقرة السابقة مثال آخر لعادة قولية أخرى هي إسناد الفعلِ للكلِّ والمراد واحد، إذ أسند في الآية القتلَ إلى الكل، والقاتل واحد؛ «لأن ذلك من عادة العرب، ولأن عادة القبيلة المدافعة عن أحدهم فقال: ﴿قَتَلْتُمْ﴾ فأقبل عليهم بالخطاب توبيخاً لهم وإشارة إلى أن الموجودين منهم راضون بما مضى من أسلافهم، وأنَّ من وَدَّ شيئاً كان من عمله»[3].

---

(١) الحماسة البصرية: ١/ ٥٧٤، قال ابن منظور: هو قول لسُبَيح بن رِياح الزِّنْجي، ويقال: رياح بن سبيح حين غَضِبَ لما قال جَرِيرٌ في الفَرَزْدَق:

لا تَـطْـلُـبَـنَّ خُـؤُولَـةً فـي تَـغْـلِـبٍ   فـالـزِّنْـجُ أَكْـرَمُ مـنـهـمُ أَخْـوَالا

فقال سبيح أو رياح لما سَمِع هذا البيت:

الـزِّنْـجُ لـو لاقَـيْـتَـهـم فـي صَـفِّـهِـمْ   لاقَـيْـتَ ثـمَّ جَـحَـا جِـحـاً أَبْـطَـالاً

مـا بـالُ كَـلْـبِ بَـنـي كُـلَـيْـبٍ سَبَّـنـا   أَنْ لـم يُـوازِنْ حـاجِـبـاً وعِـقَـالا؟

إِنَّ الـفَـرَزْدَقَ صَـخْـرَةٌ عـادِيَّـةٌ   طـالَـتْ فـلـيس تَـنـالُـهـا الأَوْعـالا

انظر: اللسان: طول ١١/ ٤١٠.

(٢) زاد المسير: ١/ ٨٣، وروح المعاني: ٦/ ١١٥.

(٣) نظم الدرر: ١/ ١٢٦.

- ذكر الأمّ في النداء استعطافاً:

من عادات العرب القولية: ذكرهم للأمّ على سبيل الاستعطاف بالرحم، ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] ومحل الشاهد: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ...﴾ حيث إن المرء يُنْسب إلى أبيه، قال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥] وعند النداء ينادى باسمه مشفوعاً باسم أبيه لا أمه، ولكن الأمر هنا قد اختلف، فقد نادى نبي الله هارون أخاه موسى عليهما السلام وكان شقيقه بغير المؤتلف من النداء بين الناس فقال له: «يا بن أمّ» وذلك لنكتة هي طلب الاستعطاف والترفق والتلطف به، وهي عادة العرب حيث تتلطف وتتحنن بذكر الأمّ استعطافاً بالرحم، كما قال أَبو زَبِيد الطائي:

يـابـنَ أُمّـي ويـا شُـقَـيِّـقَ نَـفْـسِـي   أَنْـتَ خَـلَّـيْـتَـني لأمْـرٍ شَـدِيـد(١)

وقال آخر:

يـابـنَ أمِّـي فدتك نفسي ومـالـي(٢)   ....

- اشتقاق اسم للمخاطب من صفته تأنيساً له وملاطفة:

من عادات العرب القولية: اشتقاقهم اسماً للمخاطب من صفته التي هو عليها، على سبيل التأنيس له والملاطفة معه، وذلك كائن في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١] وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١] فلم يقل: يا محمد أو يا أحمد، بل ناداه سبحانه بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ وذلك من باب المؤانسة والملاطفة

---

(١) الكتاب: ١٢/ ٢١٣، واللسان ١٠/ ١٨١ (شقق).

(٢) النكت والعيون: ٢/ ١٩، البحر: ٣/ ٤٥٧.

سيراً على عادة العرب في اشتقاق اسم للمخاطب من صفته التي هو عليها كقوله ﷺ لعلي رضي الله عنه حين غاضب فاطمة رضي الله تعالى عنها، فأتاه وهو نائم، وقد لصق بجنبه التراب: «**قم أبا تراب**»(١) «قصداً لرفع الحجاب وطَيِّ بساط العتاب، وتنشيطاً له ليتلقى ما يرد عليه بلا كسل:

وكلُّ ما يفعلُ المحبوبُ محبوبُ ....»(٢)

- ذكر الصباح غير مراد وقته المعروف:

من عادات العرب القولية: ذكر الصباح غير مراد وقته المعروف، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠]، فالصباح في قوله: ﴿فَأَصْبَحَ﴾ غير مراد به وقت الصبح المعروف، بل أريد به كل الأوقات، واستدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ﴾ على أن القتل وقع ليلاً وليس بشيء، فإن من عادة العرب أن يقولوا: أصبح فلان خاسر الصفقة إذا فعل أمراً ثمرته الخسران، ويعنون بذلك حصول الخسران، مع قطع النظر عن وقت دون وقت، وَهُوَ كَقَوْلِ مسكين بن علي الحنظلي وقد وصف صخّابة من عواذله طويلة الخصام:

أصبحَتْ عاذِلَتي مُعْتلَّةً قَرِمَتْ بل هي وَحْمى للصَّخَبْ(٣)

(١) نص الحديث: «أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، فَقَالَ: هَذَا فُلَانٌ لأَمِيرِ الْمَدِينَةِ يَدْعُو عَلِيّاً عِنْدَ الْمِنْبَرِ قَالَ: فَيَقُولُ مَاذَا؟ قَالَ: يَقُولُ لَهُ: أَبُو تُرَابٍ، فَضَحِكَ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا سَمَّاهُ إِلا النَّبِيُّ ﷺ، وَمَا كَانَ لَهُ اسْمٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْهُ فَاسْتَطْعَمْتُ الْحَدِيثَ سَهْلاً وَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبَّاسٍ كَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: دَخَلَ عَلِيٌّ عَلَى فَاطِمَةَ، ثُمَّ خَرَجَ فَاضْطَجَعَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ؟ قَالَتْ: فِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ فَوَجَدَ رِدَاءَهُ قَدْ سَقَطَ عَنْ ظَهْرِهِ وَخَلَصَ التُّرَابُ إِلَى ظَهْرِهِ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ التُّرَابَ عَنْ ظَهْرِهِ فَيَقُولُ: اجْلِسْ يَا أَبَا تُرَابٍ مَرَّتَيْنِ». رواه البخاري: كتاب: المناقب باب: مناقب علي بن أبي طالب، برقم: ٣٤٢٧.

(٢) الآلوسي: ٢١/ ٣٦٩.

(٣) أمالي القالي: ١/ ١٧٣. وانظر: روح المعاني: ٦/ ١١٥. وقَرِمت: اشتدت شهوتها للشيء. والوَحْمى: مِنْ وَحِمَتِ الحُبْلى: اشتهت شيئاً على حبلها.

- تكرير الشيء بلفظ آخر:

من عادة العرب القولية أنهم إذا كرروا شيئاً كرروه بلفظ آخر، وقد نطق القرآن بذلك من خلال قوله تعالى على لسان طالوت في تحذيره جنوده: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] يقال: طعمت الشيء أي: ذقته وأطعمته الماء أي: أذقته، ولم يقل: ومن لم يشربه؟ لأن من عادة العرب إذا كرروا شيئاً أن يكرروه بلفظ آخر، ولغة القرآن أفصح اللغات، فلا عبرة بقدح من يقول: لا يقال: طعمت الماء[١].

- قصرهم النفي بـ «ليس» على بعض وجوهه:

من عادات العرب القولية: قصرهم النفي بليس على بعض الوجوه، وهذا ما فُسّر به النفي بليس في قول طالوت لجنوده: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩] ومعنى فليس مني أي: ليس من أصحابي في هذه الحرب، ولم يخرجهم بذلك عن الإيمان، وفي الحديث: «**من غشَّنا فليس منا**»[٢]، أي: ليس من أصحابنا، ولا على طريقتنا وهدينا، قال: النابغة الذُّبياني:

إذا حَاوَلْتَ في أَسَدٍ فُجوراً فإنّي لَسْتُ منكَ ولَسْتَ منّي[٣]

وهذا مهيع في كلام العرب، يقول الرجل لابنه إذا سَلَكَ غيرَ أسلوبه: «لست مني»[٤].

---

(١) القرطبي: ٣/ ٢٥٢، وفتح القدير: ١/ ٢٦٥.

(٢) مسلم كتاب: الإيمان، باب: قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا» ١/ ٢٦٥، برقم: ١٤٥.

(٣) ديوان النابغة الذبياني: ١٢٧.

(٤) القرطبي: ٣/ ٢٥٢، وفتح القدير: ١/ ٢٦٥.

- تأكيد إلزام الشيء بتصييره في العنق:

من العادات العربية القولية: تأكيدهم إلزام الشيء بتصييره في العنق، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

أي: أن البخلاء بما في أيديهم سيطوقون بما بخلوا به أي: سيكون طوقاً من نار يوضع في أعناقهم يوم القيامة، أو «سيلزمون إثمه في الآخرة، يقال: فلان كالطوق في رقبة فلان، والعرب يعبرون عن تأكيد إلزام الشيء بتصييره في العنق، ومنه يقال: قلدتك هذا الأمر وجعلت هذا الأمر في عنقك»، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣][(١)] وعلى ذلك يحمل كل نظير في القرآن.

- استعمال العرب أكل لحم الآدمي مكان الغِيبة:

من عادات العرب القولية: استعمالُهم أَكْلَ لحمِ الميتِ يريدون بذلك الغيبة، وقد جاء قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] على وفق هذه العادة، حيث مثل الله تعالى الغيبة بأكل الميتة؛ لأن الميت لا يعلم بأَكْلِ لحمه، كما أن الحيَّ لا يعلم بغيبة من اغتابه.

قال ابن عباس: إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة؛ لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر، وكذا الغيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس.

وقال قتادة: كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حياً، واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة؛ لأن عادة العرب بذلك جارية.

---

(١) مفاتيح الغيب: ٩/ ٩٣.

قال المُقَنَّع الكِنْدي من أبيات الحماسة(١):

فإنْ يأكلوا لَحْمي وَفَرْتُ لُحومَهم وإنْ هَدَمُوا مَجْدي بَنَيْتُ لهم مَجْدا
وإنْ ضَيَّعوا غَيْبي حَفِظْتُ غُيوبَهم وإنْ هم هَووا غيّي هَوِيتُ لهم رشدا

ومن هذا القبيل أيضاً قول الشاعر سُوَيْدِ بنِ أبي كاهِلٍ اليَشْكُريّ(٢):

ويُحَيِّيني إذا لاقَيْتُه وإذا يَخْلُو له لَحْمِي رَتَعْ

فمن تنَّقص مسلماً أو ثَلَمَ عِرْضه فهو كالآكل لحمه حياً، ومن اغتابه فهو كالآكل لحمه ميتاً.

- استعمال العَوْل بمعنى الجور:

من عادات العرب القولية: استعمال عال بمعنى جار ومال عن القصد، وقد جاء القرآن بذلك فقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣].

ألا تعولوا أي: ألا تجوروا في الحقوق الشرعية، والعرب تقول: عال يعول إذا جار ومال وهو عائل، ومنه قول أبي طالب(٣):

بميزانِ صِدْقٍ لا يُغِلُّ شَعيرَةً له شاهِدٌ من نفسه غيرُ عائِلِ

أي: غير مائل ولا جائر، ومنه قول الآخر(٤):

قالوا اتَّبَعْنا رسولَ اللهِ واطَّرَحوا قولَ الرسولِ وعالُوا في المَوازينِ

أي: جاروا(٥).

---

(١) الحماسة بشرح المرزوقي ٣/ ١١٧٩.
(٢) اللسان: رتع، ٨/ ١١٢، وانظر: المحرر الوجيز: ٥/ ١٥٢، القرطبي: ١٦/ ٣٣٥.
(٣) تهذيب اللغة: عيل، ٣/ ١٩٦، واللسان: عيل، ١١/ ٤٨٨.
(٤) الصحاح: ٥/ ١٧٧٧، واللسان: ١١/ ٤٨١. [عول].
(٥) أضواء البيان: ١/ ٣١٧.

- نداء غير المنادى في الحقيقة:

من العادات العربية القولية: التعبير عن الأمور العظيمة بنداء غير المنادى في الحقيقة، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠] فهل الحسرة تُنادى؟

معنى دعاء الحسرة تنبيه للناس على ما سيحصل لهم من الحسرة، والعرب تعبر عن تعظيم أمثال هذه الأمور بهذه اللفظة، قال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦].

وهذا أبلغُ مِنْ أَنْ يقالَ: الحسرة علينا في تفريطنا، ومثله: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤] تأويله: يا أيها الناس تنبهوا على ما وقع بي من الأسف، فوقع النداء على غير المنادى في الحقيقة، فإذا قلت: يا عجباه، فكأنك قلت: يا عَجَبُ احضَرْ وتعالَ؛ فإن هذا زمانك[1].

- أحيط بفلان إذا قرب هلاكه:

من العادات العربية القولية: قول العرب لمن قرب هلاكه «أحيط بفلان» جاء ذلك في قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام في شأن ابنه يوسف: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦].

معنى ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ الهلاك، أي: إلا أن تموتوا كلكم فيكون ذلك عذراً عندي، والعرب تقول: أحيط بفلان إذا قرب هلاكه، قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢] أي: أصابه ما أهلكه، وقال تعالى: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢]،

---

(١) مفاتيح الغيب: ١٨/ ١٣٧.

وأصله أن من أحاط به العدو وانسدت عليه مسالك النجاة دنا هلاكه، فقيل لكل من هلك: قد أحيط به[1].

- حَمْلُ معاني الأفعال على أفعال أخرى لما بينهما من الارتباط والاتصال:

من عادات العرب القولية: حمل معاني الأفعال على أفعال أخرى لما بينهما من الارتباط والاتصال، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦] معنى الآية: «لِلَّذِينَ يَعْتَزِلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ بِالْأَلِيَّةِ، فَكَانَ مِنْ عَظِيمِ الْفَصَاحَةِ أَن اخْتُصِرَ، وَحُمِّلَ آلَى مَعْنَى اعْتَزَلَ النِّسَاءَ بِالْأَلِيَّةِ حَتَّى سَاغَ لُغَةً أَنْ يَتَّصِلَ آلَى بِقَوْلِك مِنْ، وَنَظْمُهُ فِي الْإِطْلَاقِ أَنْ يَتَّصِلَ بِآلَى قَوْلُك عَلَى، تَقُولُ الْعَرَبُ: اعْتَزَلْت مِنْ كَذَا وَعَنْ كَذَا، وَآلَيْت وَحَلَفْتُ عَلَى كَذَا، وَكَذَلِكَ عَادَةُ الْعَرَبِ أَنْ تَحْمِلَ مَعَانِيَ الْأَفْعَالِ عَلَى الْأَفْعَالِ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ الارْتِبَاطِ وَالِاتِّصَالِ»[2].

- الخيل: الخير:

من عادات العرب القولية: تسميتهم الخيلَ بالخير، وقد جاء القرآن الكريم بذلك فقال تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۞ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [صٓ: ٣١، ٣٢] وردت هاتان الآيتان على لسان نبي الله سليمان عليه السلام حين عُرضت عليه الخيول الأصيلة السريعة، التي لازالت تُعرض عليه حتى غابت الشمس، فقال: إنني آثَرْتُ حبَّ الخيل عن ذكر ربي حتى غابت الشمس وتوارت.

من الأقوالِ التي حكاها العلماءُ في معنى الخيرِ هنا: الخيلُ. قال ابن عطية: «لأن العرب تُسَمِّي الخيل الخير»[3].

---

(١) مفاتيح الغيب: ٩/ ٧٤، واللباب: ٩/ ٤١١.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي: ١/ ٢٤٣.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٧.

- البخل: الفحشاء:

من عادات العرب القوليةِ تسميتُهم البخل فحشاً، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨] أي: الشيطان يخوفكم الفقر، ويغريكم بالبخل، الذي هو الخصلة الفحشاء، وذلك بحثِّه إياكم على ترك الصدقات، والعرب تسمي البخيل: فاحشاً، قال طَرَفة بن العبد:

**أَرَى المَوْتَ يَعْتَامُ الكِرامَ ويَصْطَفِي		عَقِيلَـةَ مـالِ الفاحِـشِ المُتَشـدِّدِ**[(١)]

وقيل: بالفحش أي: بالمعاصي والسيئات[(٢)].

- إطلاق الأب على العم:

من عادات العرب القولية: إطلاقهم الأب على العمّ، وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤] الضمير في قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ أي: ذرية إبراهيم، وقيل: من ذرية نوح، واعترض بأنه عَدَّ من هذه الذرية يونس ولوطاً، وما كانا من ذرية إبراهيم وكان لوط ابن أخيه، وقيل: ابن أخته، قال القرطبي: «هؤلاء الأنبياء جميعاً مضافون إلى ذرية إبراهيم، وإن كان فيهم من لم تلحقه ولادة من جهته من جهة أب ولا أم؛ لأن لوطاً ابن أخي إبراهيم، والعرب تجعل العَمَّ أباً، كما أخبر الله عن ولد يعقوب أنهم قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، مع أنّ إسماعيل عم يعقوب،

---

(١) ديوان طرفة: ٥٣.

(٢) إرشاد العقل السليم ١/ ٢٦٢، وروح المعاني: ٣/ ٨٠.

كما تسمي الخالة أماً»[1]. وقال النبي ﷺ: «**عم الرجل صنو أبيه**»[2]. وقال في عمه العباس: «**ردوا عليَّ أبي، فإني أخشى أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود، وذلك أنهم قتلوه**»[3].

- الإخبار عن الاسمين المستويين في الحكم مع الإضافة إلى أحدهما أو إليهما جميعاً:

من عادة العرب القولية أنهم إذا ذكروا اسمين ثم أخبروا عنهما وكانا في الحكم سواء ربما أضافوا إلى أحدهما، وربما أضافوا إليهما جميعاً، قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢].

أراد بالأخ والأخت في الآية الأخ والأخت من الأم بالاتفاق، وأعاد الضمير مفرداً في قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ﴾ ولم يقل: لهما؟ وقد مضى ذِكْرُ الرجلِ والمرأة على عادة العرب إذا ذكرت اسمين ثم أخبرت عنهما وكانا في الحكم سواء ربما أضافت إلى أحدهما، وربما أضافت إليهما جميعاً، تقول: من كان عنده غلام وجارية فليحسن إليه وإليها وإليهما وإليهم، قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقد يذكرونه مثنى، كما في قوله تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ﴾ [النساء: ١٣٥][4].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٣١ ونسب هذا القول إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) مسلم: كتاب: الزكاة، باب: فِي تَقْدِيمِ الزَّكَاةِ وَمَنْعِهَا برقم: ١٦٣٤ ٥/ ١٢٤.

(٣) الكشاف: ٣/ ٥٦٦، وانظر: معالم التنزيل: ٣/ ٣٩، وتفسير القرآن العظيم: ١/ ١٨٧، وإرشاد العقل السليم: ٣/ ١٣٨، وروح المعاني: ٧/ ٢١٢.

(٤) البغوي: ٢/ ١٨٠، والقرطبي: ٥/ ٧٨، وفتح القدير: ٢/ ٩٧.

- خطاب السيد ومقصودهم قومه:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] في الآية الكريمة ضَرَبَ الله تعالى بسط اليد مثلاً لذهاب المال، لأنَّ قَبْضَ الكفِّ يحبس ما فيها، وبَسْطَها يذهب ما فيها، وهذا كله خطاب للنبيِّ ﷺ والمراد أمته، وكثيراً ما جاء في القرآن مثل ذلك، فإن النبي ﷺ لما كان سيدهم وواسطتهم إلى ربهم عبر به عنهم على عادة العرب في ذلك(١).

هذه بعضُ عاداتِ العرب القولية، جَمَعْتُها من بين ثنايا كتب التفسير محللاً إياها مستأنساً بكتب اللغة والأدب، لعلها تضيف لَبِنة في بناء مكتبة الدراسات القرآنية، وتحفز هِمَمَ الدارسين لاستخراجِ مزيدٍ من عادات العرب القولية، إذ إن كل عادة ترفع وهماً، وتثبت يقيناً على طريق فهم كتاب الله عز وجل.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

---

(١) القرطبي: ١٠/ ٢٥٠، والثعالبي: ٢/ ٣٧٦.

الخاتمة

من خلال تناولي لموضوع «عادات لغوية في ضوء القرآن الكريم» أستطيع استخلاص ما يلي:

- على المشتغل بالدراسات القرآنية أن يدرس عادات العرب القولية دراسة جيدة.
- يجب على مترجم معاني القرآن الكريم إلى لغات أخرى أن يتضلع من عادات العرب القولية ليقول عن الله بعلم.
- التيقن بأنه يتحتم على من يتعرض للقرآن الكريم تفسيراً وفهماً أن يقف على ملابسات النزول وهي أوسع من أسباب النزول؛ لأنها أسباب غير مباشرة تكمن في سنن العرب وعاداتهم.
- تأكيد البحث على أنه لا يمكن أن نفهم القرآن ما لم نستحضر سياق الآية اللغوي، وسياقها غير اللغوي.
- بيان البحث لظروف العرب الاجتماعية والفكرية والدينية، ودراسة ذلك من خلال أكثر من ثمانين مثالاً هي جوهر هذا البحث.
- يحذر البحث من الوهم الذي قد يلاحق كل مشتغل بالدراسات القرآنية بسبب تغافله عن سنن العرب القولية.

التوصية: أوصي بجمع موسوعة لغوية عربية تكون مادتها من خلال كتب التفسير وفروع العربية، لتعين على فهم صحيح للقرآن الكريم.

صحيفة المراجع

- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي - تحقيق مركز الدراسات القرآنية - الأولى - مجمع الملك فهد - ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- أحكام القرآن لابن العربي، ت: محمد عطا، دار الفكر لبنان د. ت.
- الإحكام لابن حزم، دار الحديث، الأولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- إرشاد العقل السليم لأبي السعود، دار الفكر، د. ت.
- أساس البلاغة للزمخشري، الهيئة العامة للكتاب، الثالثة، ١٩٨٥م.
- أسباب النزول للواحدي، تحقيق أيمن صالح، دار الحديث بالقاهرة - الرابعة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- أضواء البيان للشنقيطي، دار الفكر، الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- أمالي القالي، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٥م.
- أنوار التنزيل للبيضاوي، الصناديقية بالقاهرة، د. ت.
- البحر المحيط لأبي حيان، دار الفكر بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- البرهان للزركشي تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعرفة. د. ت.
- تاج العروس للزبيدي ت: علي شيري - دار الفكر - الأولى - ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- التحرير والتنوير لابن عاشور، دار سحنون بتونس، د. ت.
- التعريفات للجرجاني، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي، الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، دار المعرفة، الثانية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

- تهذيب اللغة للأزهري ت: عبد السلام هارون – دار الكتب المصرية، الأولى، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
- جامع البيان للطبري، دار الفكر، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- الجامع الصحيح للبخاري، دار ابن كثير، بيروت، ١٤٠٧هـ.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، طبع فياض بالمنصورة. د. ت.
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، د. ت.
- الحماسة البصرية، ت: د. عادل سليمان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- خزانة الأدب للبغدادي، ت: عبد السلام هارون، الخانجي، الرابعة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الخامسة. د.ت.
- ديوان الخنساء، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠١م.
- ديوان جرير ت: نعمان محمد طه، دار المعارف بمصر.
- ديوان حسان بن ثابت، دار المعارف، تحقيق: د. سيد حنفي حسنين، د.ت.
- ديوان طرفة بن العبد تحقيق د. على الجندي، ط الأجلو. د. ت.
- ديوان عنترة ت: عبد المنعم شابي، الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠٠١م.
- ديوان النابغة الذبياني، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، الثالثة، ١٩٩٠م.
- ديوان يزيد بن مفرغ الحميري، جمع وتحقيق د. عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الرسالة، الثانية ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

- الرسالة للإمام الشافعي، مكتبة دار التراث، تحقيق أحمد شاكر، الثانية ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- روح المعاني للآلوسي، دار إحياء التراث العربي، الرابعة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- زاد المسير لابن الجوزي، المكتب الإسلامي، الثالثة، ١٤٠٤هـ.
- شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ت: أحمد أمين، وعبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م
- شرح شواهد الشافية للبغدادي، دار الكتب العلمية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- الصاحبي لابن فارس ت: السيد صقر، الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر – ٢٠٠٣م.
- الصحاح للجوهري ت: أحمد عطا – دار العلم للملايين – الثالثة – ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- صحيح مسلم، إحياء التراث العربي، ترقيم محمد فؤاد. د. ت.
- فتح القدير للشوكاني، دار الفكر، الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- فقه اللغة للثعالبي دار البشير – مصر د. ت.
- الكتاب لسيبويه تحقيق عبد السلام هارون – دار الجيل – الأولى – د. ت.
- الكشاف للزمخشري، دار الفكر بيروت، د. ت.
- لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن، دار الكتب العلمية بيروت.
- لباب النقول للسيوطي، ت: ياسر عزب، التوفيقية بمصر، د. ت.
- اللباب لابن عادل، المكتبة الشاملة.

- لسان العرب لابن منظور، دار المعارف بمصر د. ت.
- لطائف الإشارات للقشيري تحقيق د. إبراهيم بسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الثالثة، ٢٠٠٠م.
- مجموع الفتاوى لابن تيمية، العبيكان، الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- المحرر الوجيز لابن عطية، قطر، الأولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- المخصص لابن سيدة، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الأولى - ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي، تحقيق محمد جاد المولى، وعلى البيجاوي، دار الحرم للتراث، الثالثة، د. ت.
- المصباح المنير للفيومي، طبع دار الفكر، د. ت.
- معالم التنزيل للبغوي، ت: خالد العك، دار المعرفة بيروت، ١٤٠٧هـ.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- معجم مقاييس اللغة لابن فارس تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- مفاتيح الغيب للفخر الرازي، دار الفكر، الثالثة، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
- المفردات للراغب الأصفهاني: دار القلم دمشق، ت: صفوان عدنان داودي، الثانية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- مقدمة ابن خلدون، دار ابن خلدون بالاسكندرية بمصر د. ت.
- الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية، الرابعة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

- نظم الدرر للبقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- النكت والعيون للماوردي، ت: خضر محمد خضر، دار الصفوة، الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- النيسابوري، على حاشية الطبري، الحجر بمصر. د. ت.

المحتويات

ملخص البحث..... ٢١
المقدمة..... ٢٢
المبحث الأول: العادة..... ٢٧
المبحث الثاني: عادات العرب القولية في ضوء آيات العقيدة..... ٣٤
المبحث الثالث: عادات العرب القولية في ضوء آيات العبادات..... ٦٨
المبحث الرابع: عادات العرب القولية في ضوء آيات المعاملات..... ٧٥
الخاتمة..... ٨٧
صحيفة المراجع..... ٨٨
المحتويات..... ٩٣